البحث الفائز
بجائزة
مؤسسة اقرأ
في
التراجم الإسلامية

أبو عبيدة بن الجراح

رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس

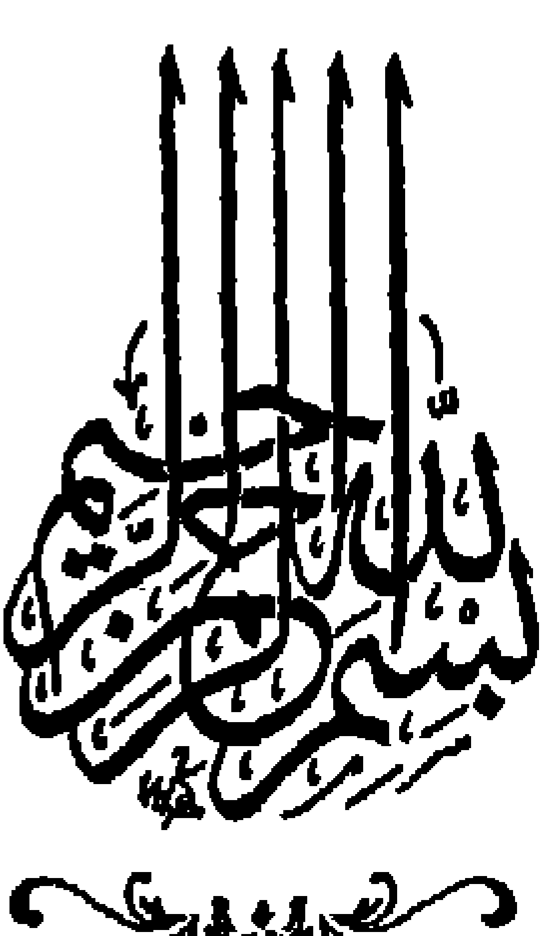
تأليف
وليد عبد الماجد كساب

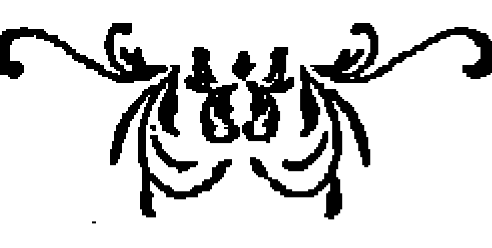
مراجعة وتقديم
المفكر الإسلامي الكبير
أ.د/ عبد الحليم عويس



أبو عبيدة بن الجراح

رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس







رقم الإيداع

٢٠١٠/١٣٦٤٨

أبو عبيدة بن الجراح

رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كساب، وليد عبد الماجد.
أبو عبيدة بن الجراح: رجل السقيفة، وفاتح بيت المقدس
وليد عبد الماجد كساب؛ مراجعة وتقديم عبد الحليم عويس
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٠م.
١٥٠ص، ١٤سم × ٢٠سم.
١- الصحابة والتابعون
٢- أبو عبيدة بن الجراح، عامر بن عبد الله بن الجراح ابن هلال الفهري، ٥٨٤-٦٣٩.
أ- عويس، عبد الحليم (مراجع ومقدم).
ب- العنوان.

٢٣٩,٩

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة

الحي الثامن ، مدينة نصر، القاهرة.

تليفون : ٢٤٧٠٩٢٦٩ ٠٢ ٠٠٢

فاكس: ٢٤٧١٤٨٠١ ٠٢ ٠٠٢

محمول: ٠١٦٢٢٧٦٢٠٨ ٠٠٢

Email: alyousr@gmail.com

أبو عبيدة بن الجراح

رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس

البحث الفائز بجائزة مؤسسة اقرأ للتراجم الإسلامية

تأليف

وليد عبد الماجد كساب

مراجعة وتقديم

المفكر الإسلامي الكبير

أ. د. عبد الحليم عويس





بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة تقدير

يسر مؤسسة اقرأ الخيرية

أن تشهد بأن الأستاذ/ وليد عبد الماجد جبريل كساب

قد اشترك فى مسابقتها الثقافية للشباب لعام ٢٠٠٠م وقد فاز بالمركز الأول

فى فرع/ التراجم الإسلامية موضوع/ أبو عبيدة بن الجراح

وترجو له المؤسسة المزيد من النجاح والتقدم ، والله ولى التوفيق

الجيزة فى : ٩/ ٤/ ١٤٢٢هـ - ٣٠/ ٦/ ٢٠٠١م

عضو مجلس الإدارة
المشرف على المؤسسة

رئيس مجلس الإدارة

إلى الغائبة الحاضرة:

دعائي لك بالمغفرة،

ولصغيرتك (يمنى) بحياة رغدة آمنة..

......

إلى روح جدي الشيخين (جبريل) و (أبي عبيدة)

......

إلى والدي الحبيبين..

......

إلى أختي الغاليتين

......

إلى صغيري (خالد):

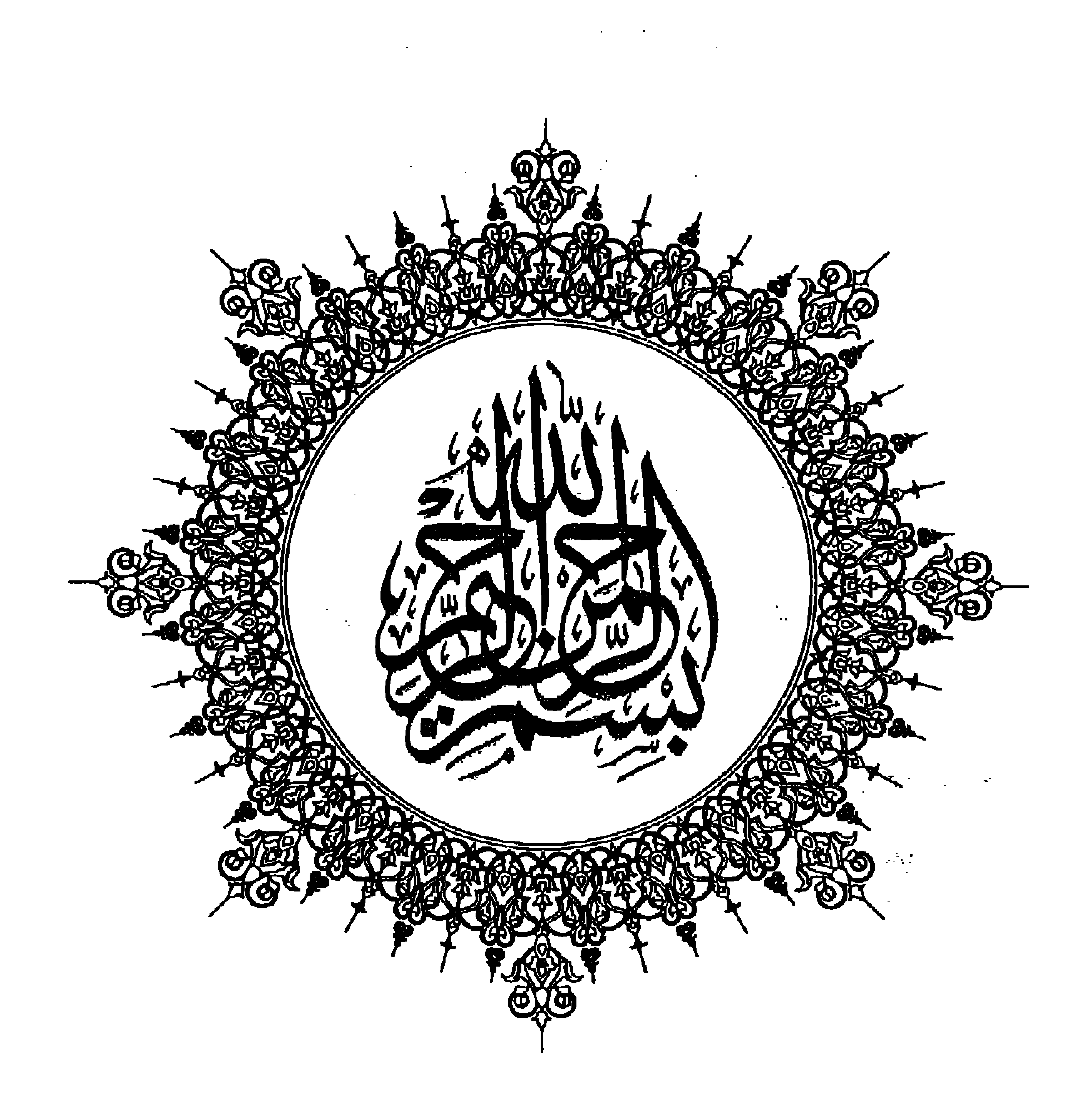
داعيا الله تعالى أن ينبته نباتا حسنا

.....

إلى رفيقة دربي وقسيمة عمري

أهدي هذا الكتاب..




بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

المفكر الإسلامي الكبير

أ.د/ عبد الحليم عويس

هذا باحث اسمه (وليد) نشأ في طاعة الله وحب صحابة رسول الله ﷺ...لكنه الآن لم يعد (وليدا) بل بلغ مرحلة (الرشد الفكري) وأصبح شابا باحثا كاتبا مُجيدا مُحبًّا للإسلام والعلم، ولم يمنعه شبابُه العلمي أن يكون منهجيًّا رصينا، وباحثًا عن الحقيقة، فالحب في ديننا شقيقٌ للحقيقة لا ينفصل عنها، وكل حبٍ يتجاوز الحق بعيد عن ديننا.

وصديقنا وابننا العزيز شاءت له إرادة الله ﷻ أن يكتب عن صحابي جليل، ومجاهد كبير هو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ أمين هذه الأمة، ووضع تحت اسم أبي عبيدة بن الجراح ﷺ عبارة أراها معبرة التعبير كله عن حقيقة أبي عبيدة ﷺ، وقد وُفِّق إلى أن يضع عبارة (رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس).

إن قصة أبي عبيدة ﷺ مع رسول الله - والتي استحق من أجلها أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة- هي قصة بناء العقيدة، والرجولة، والقيادة في شخصية أبي عبيدة ﷺ، وهي قصةٌ عَرَضَ لها الكاتب المبدع وأعطاها حقها، ومن حقها أن تُبرز فأبو عبيدة ﷺ بإيجاز هو «الرجل والعقيدة والدعوة والسيف».

كثيرون هم الرجال الذين ربَّاهم الرسول ﷺ فتتلمذوا على يديه في

دار الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ تربية عقيدية وعبادية ودعوية، وتحمّلوا الكثير خلال هذه المرحلة، فأُوذوا وهاجروا إلى الله ﷻ وكان أبو عبيدة ﷺ من هؤلاء الذين قامت على عاتقهم دولة المدينة، تلك الدولة التي وُجدت قبل دولة العقد الاجتماعي التي قال بها (جان جاك روسو) بمئات السنين.

شهد أبو عبيدة ﷺ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد بدرا، وكان من ألمع فرسانها، وفي بدر تقطّعت الأرحام والأنساب، فقد اضطرّ ﷺ إلى مواجهة أبيه في غزوة بدر، فكان أبو عبيدة ﷺ كلما حاول أن يحيد عنه، قصده أبوه ليقتله، مما اضطرّه ﷺ إلى قتل أبيه، وفي هؤلاء الأبرار أصحاب العقيدة الواضحة التي لا تقبل العواطف أو المساومات، نزل قول الله ﷻ في سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهكذا تمضي حياة أبي عبيدة ﷺ في بقية أيامه تلميذًا أميناً داعيةً شجاعا مجاهدًا في مدرسة محمد ﷺ يمزج بين جهاده بالحق، ودعوته بالحكمة، وبين خفض الجناح، وجهاده بالسيف، وهما لا ينفصلان.

ولعل حياة أبي عبيدة ﷺ تقدم لنا نموذجاً فريدًا من النماذج الراقية المجاهدة في هذا السبيل، في قصته مع خالد بن الوليد ﷺ سيف الله المسلول، فقد رأينا عندما جاء الأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بعزل خالد بن الوليد ﷺ وتولية أبي عبيدة.. وكيف عالج أبو عبيدة ﷺ الأمر بحكمة رائعة، حقّق من خلالها النصر للمؤمنين، وأرضى بها الخليفة، وخالد بن الوليد معاً بحكمته وزهده، وهو موقف

لا يمكن أن يُنسى لأبي عبيدة ﷺ، وهو يستحق أن يُسجَّل في سائر الكتابات والأدبيات الخالدة الرائعة التي كُتبت حوله.. مع أن باحثنا الشاب - سامحه الله عزوجل - قد عَبَرَه عبورا سريعا، وإننا نأمل أن يقدم فيه «تحليلا واستخلاصاً للدروس» عند إعادة طبع هذا الكتاب الشَّيِّق، الذي يستحق أن يُطبع غير مرة، وأن يقرأه شبابنا بتمعّن وتعمّق كبيرين.

إن حياة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ قصة طويلة خصبة، حافلة بلوحات إيمانية رائعة..فله ﷺ مواعظُ وعبرٌ كثيرةٌ لا يتسع المجال لحصرها.. وله رسائله التي تمثل صورا مُثْلى في فن الدعوة، وله سلوكياته في العزوف عن الدنيا، والتواضع، والورع، وفي مواجهة الشدائد.. وهي أخلاق حميدة يجب أن تحتذى.. وقد ظلَّ على هذا المنهج السديد إلى أن لقي ربه في طاعون عَمَوَاس سنة ١٨هـ.

رحم الله أبا عبيدة ﷺ، وجزاه عن الإسلام خيرا.. وتحيتي.. وتهنئتي.. لهذا الباحث الجاد، الذي يجمع بين الولاء لدينه، والمنهجية العلمية الرصينة، وبين الأخذ بأسباب الثقافة الأصيلة.. فله مني خالص الدعوات وأرق الأمنيات.. آملًا أن ألتقي معه في أعمال أخرى.. بإذن الله عزوجل وعونه..

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

أ.د/ عبد الحليم عويس

رئيس تحرير مجلة التبيان

القاهرة في: ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ

٧ يونيو ٢٠١٠م.

المقدمة

شخصيةٌ فذةٌ فريدةٌ، وعبقريةٌ قلّما يجودُ الزمانُ بمثلِها.. جَمَعَ صاحبُها بين العلمِ والفَهْم..والحلمِ والحزمِ.. والزُّهدِ والكرمِ.. والإقدام والتأنِّي.. والولاء والبراء..والخوف والرجاء.. كان إذا تكلم سُمع لقوله.. وإن حكم نُزل على حكمه.. لينًا في غير ضَعْف.. شديدًا في غير عُنف.. عزيزًا في غير كِبْر..غَضيضةٌ عن الشر عيناه..ثقيلةٌ عن الباطل رِجلاه..ما سَعَىَ بالغَدْرِ، ولا رَامَ المَكْر.

هذا جِماعُ ما يمكن قولُه عن هذه الشخصية الاستثنائية التي نَلِجُ في دَواخِلِها، ونجولُ في طواياها..نقتطفُ من ثمارها.. نرتشفُ من رحيقها.. نتنسَّمُ عبيرَها نتعلَّمُ من تجارِبِها..

من أجلِ هذا كله، كان لابد من الغوص في ذاكرة التاريخ -الممتد لأربعة عشر قرنًا من الزمان- للتنقيب عن معالم هذه الشخصية العظيمة.. ولِمَ لا ؟! فهي - بلا شكٍ- جديرةٌ بالعناية، للاهتمام، فكم من دَورٍ قام به هذا المجاهد الأمين أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في التمكين لهذا الدين مع غيره من الصحابة، الذين حملوا مشاعل الهدى فأضاءوا جَنَبَاتِ الأرض بنور الإسلام، فاستحقُّوا الثَّناءَ من الله عز وجل وكان سعيُهُم مشكورًا.

والحقيقة إنني كلَّما قرأتُ في سيرة أبي عبيدة رضي الله عنه وما فيها من مواقف انطوت على ذكاءٍ وفطنةٍ متوقِّدين وعبقريةٍ طاغيةٍ؛ ازدادت دهشتي، وألحَّ عليَّ

سؤالٌ مؤرِّقٌ: لماذا لم يُفرد الأستاذ عباس العقاد ضمن عبقرياته كتاباً لعبقرية هذا الرجل الذي لا يقلّ في حجمه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخالد بن الوليد رضي الله عنه..وهو حقيق بذلك الأمر.

فأبو عبيدة رضي الله عنه لم يتوقّف نهر عطائه منذ أن دخل في دين الله، وكان من أوائل السابقين إليه، فقد شارك النبي ﷺ جهاده الكبير بجرأةٍ وإقدام شديدين؛ فأحبَّه ﷺ، ونزل من نفسه منزلةً عظيمةً، حتى بشَّره بالجنة، ولقَّبه بـ «أمين الأمة».

وقد ظلَّ هذا النهر متدفقاً بلا انقطاع، حتى بعد انتقال النبي ﷺ إلى جوار ربه، فشارك في صنع أهم القرارات السياسية والمصيرية في تاريخ الدولة الإسلامية، وذلك حين رفض تَولِّي خلافة رسول الله ﷺ - وبايع في نكرانٍ واضحٍ ونادرٍ للذاتِ - أبا بكر الصديق (يومَ السَّقيفة)، بعد أن دبَّ الشِّقاق في صفوف المسلمين، وتهدَّدَت أركان الدولة الناشئة بالتداعي، ثم امْتد دورُه البارز والمؤثر إلى الفتوحات الإسلامية للشام، ففتح الله على يديه بيت المقدس، فكان بحقٍ من أعظم الفاتحين على امتداد تاريخ الإسلام، ومن ثَمَّ كان جديرا بلقب «أمير الأُمراء».

وقد أُعجب كثير من مؤرخي الغرب بأخلاق أبي عبيدة رضي الله عنه ومروءته التي لا تقارن، يقول أحدهم «لو كانت هذه أوصاف هذا الصحابي الجليل الذي كان أمير الجيش الإسلامي في ذلك العصر مجتمعة في أمراء جيوش الأعصر الجديدة المشهورة بالتمدن والتقدم لأفادتهم غاية المجد والشرف، ونفت عنهم مثالب الجور، فأجلُّ أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن في عهدنا لم تبلغ درجة ذلك الأمير الخطير، الذي هو بين الفاتحين عديم النظير، فكل منقبة من مناقب

عدله وحلمه ووفائه، تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة، وتزدرى بأمرائه..»[1].

لست ممن يهوى الإطالة؛ فلا خير في حشو الكلام إذا اهتُدي إلى عيونه، وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ، وهو ما لا يخفى على فطنة القارىء الكريم عند مطالعة هذا الكتاب الذي يؤرخ لحياة صحابي وسيلسي وقائد من أعظم القادة في تاريخ العالم - أقول العالم - ولست أبالغ في ذلك؛ فقد استطاع بفتوحاته أن يغير من خريطة العالم في فترة وجيزة من حياته.

وأخيرا فإني لأرجو المعذرة فيما قد يعتري هذا العمل من نقصٍ أو شططٍ، أو قصورٍ أو زَلَلٍ، ولعل في وجود مثل هذا أعظم العِبر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر.

والله تعالى أسألُ أن يجعلَ هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعَ به، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]

وليد عبد الماجد كساب

القاهرة في ١٥ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ

٢٩ مايو ٢٠١٠م

---

(١) دائرة المعارف للبستاني (٢/ ٢٤٤-٢٤٥).

الفصل الأول

نسبه وأسرته

نسبه وأسرته

«لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين»[1]

النبي ﷺ

لا يستطيع الباحث أن يغضَّ الطرف -بأي حالٍ من الأحوال- عن أحد المقومات الأساس في مجال التراجم التاريخية، مهما واجه في سبيل ذلك من عقبات ومصاعب، ومهما ضنّت عليه المصادر فلم تمدّه إلا بالنزر اليسير، ذلك أن دراسة الفِهْريين عامة، وبني الحارث خاصة تمثِّل أهميةً بالغةً، وفائدةً جمَّةً، فلا يمكننا تنحية البيئة جانباً عند دراسة شخصية من الشخصيات؛ لأن الإنسان لا بُدَّ له أن يتأثَّر بالبيئة التي يعيش فيها، وقديما قالوا: إن الإنسانَ ابنُ بيئته.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٣٢٠، ٢٣٤٤٥)، وفي «فضائل الصحابة» (١٢٧٦)، والبخاري (٦٨٢٧، ٤١٢١)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذي (٣٧٥٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٩٨، ٨١٩٧، ٨١٩٦)، وابن ماجة (١٣٥)، وابن حبان (٦٩٩٩، ٧٠٠٠)، والحاكم (٥١٦٢)، والطيالسي (٤١٢)، وابن أبي شيبة (٣٧٠١٨)، والبيهقي (١٩٩٣٦)، وأبو نُعيم (٧/ ١٧٦)، وابن عساكر (٢٥/ ٤٤٩-٤٥٣)، واللفظ للبخاري، وفي الباب عن أنس وعبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب وغيرهم.

و(الفِهْريون) أحد بطون (بني كِنانَة)، وينتسبون إلى (فِهْر بن مالك ابن النَّضْر بن كِنانَة) وإلى فِهْر هذا تنتسب كل قريش، ومن كان من غير ولده فليس بقرشي[١].

وفي تسمية قريش بهذا الاسم وردت روايات كثيرة، فقيل: إنها من التقرُّش بمعنى التجمُّع، وقيل: بمعنى التكسُّب والتجارة، ويقول ابن كثير «...التقرّش وهو التجمُّع بعد التفرُّق، وذلك في زمن قُصَيٍّ بن كلاب، فإنهم كانوا متفرِّقين فجمعهم بالحرم.. وقال بعضهم: كان قصي يقال له قريش.. وقيل: سميت قريش من التقرُّش وهو التكسُّب والتجارة...»[٢].

وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار، وبنو عبد أسد، وبنو زهرة، وبنو مخزوم، وبنو تيم بن مرة، وبنو عدي وبنو سهم، وبنو عامر، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث، وبنو محارب[٣].

وقد ولد فِهر بن مالك أربعة من الأولاد هم: غَالِب ومُحَارِب والحارث وأَسَد، وولد غَالِب رَجُلَيْن هما: لُؤيّ وتَيْم.

وقد سكن الفِهْريون وبنو الأَدْرَم[٤] الظَّوَاهر[٥] وسُمُّوا «قريش

(١) مختصر سيرة ابن هشام، لجنة السيرة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة (١/ ٦١) بتصرف.
(٢) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير (١/ ٦١٨) بتصرف.
(٣) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الخضرى/ ١٠ بتصرف.
(٤) الأدرم: من لا أسنان له (المعجم الوجيز/ ٢٦٦).
(٥) الظاهر: ضد الباطن. وظهر الشيء: تبين وظهر على فلان: غلبه (مختار الصحاح، أبو بكر الرازى ص٤٠٦.

الظواهر»؛ بينما سكنت قبائل قريش الأخرى «البِطَاح»[١].

وكانت قريش الظَّواهر تفتخر بغزوها وإغارتها، وتعيب على قريش البِطَاح لزومها الحرم، حتى إنها سمّت القبائل التي سكنت البطاح بالضَّبِّ[٢]، وفي ذلك يقول ضرار ابن الخطاب، وهو من محارب:

نحن بنو الحرب العَوَانِ نسبُّها وبالحربِ سُمِّينا فنحنُ محاربُ

إذا قَصَّرت أسيافُنا كان وصْلُها خُطَانا إلى أعدائِنا فنُضاربُ

وكان لبني الحارث بن فِهْر دور ريادي مهم في الصراعات التي كانت تنشب بين بطون قريش قبل الإسلام، فعندما تنازع بنو عبد مَنَاف وبنو عبد الدار الرِّفادة[٣] والسِّقَاية[٤] التي أسندها قصيّ قبل موته إلى بني عبد الدار، وانحاز بنو الحارث إلى بني عبد مناف، اعتقادا منهم بأنهم أولى بذلك من بني عبد الدار.

---

(١) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى.. والبطاح بالكسر، والبطيحة البطحاء، كالأبطح، ومنه بطحاء مكة (مختار الصحاح ص٥٥).

(٢) الضَبُّ: حيوان من الزواحف يكثر في صحارى الأقطار العربية (المعجم الوجيز ص٣٧٦).

(٣) الرفادة: خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها، فيصنع به طعام للحجاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وأول من فرضه هو قصي بن كلاب، حيث قال لقريش « يا معشر قريش إنكم جيران الله، وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج..» راجع: مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٨٨) بتصرف.

(٤) السِّقاية: حمل الماء العذب من الآبار، وظلت السقاية حتى حفر بئر زمزم (انظر تاريخ العالم الإسلامى، د ابراهيم العدوى ص٢٦).

وتشير بعض الروايات إلى أن بني عبد مناف قد تحالفوا مع بني أسد، وبني زهرة وبني تيم، وأيضاً بني الحارث، وأتوا بإناء فيه طيب فغمسوا أيديهم فيه، ومسحوها بالكعبة، وتحالفوا على ألا يُسْلم بعضهم بعضاً، ولذلك سُمُّوا بالمطيِّبين.

أما بنو محارب، وهم فِهْريون أيضاً، فقد آثروا الحياد على الانضمام لأحد الفريقين، وانضم إليهم بنو عامر[1].

وأما بنو عبد الدار؛ فقد انضم إليهم بنو مخزوم وبنو جمح، وبنو سهم وبنو عدي، وقد أتوا أيضاً بإناء، ولكن به دم، فغسلوا فيه أيديهم، ويُقال إن بعض بني عدي لعق الدم؛ فسُمُّوا لذلك «لَعَقَة الدماء» وسُمِّي حلف بني عبد الدار بـ «الأحلاف».

يقول ابن هشام «..فبينا الناس على ذلك، قد أجمعوا للحرب، إذا تداعوا إلى الصلح على أن يُعطوا بني عبد مناف السِّقَاية والرِّفادة، وأن تكون الحِجَابة[2] واللواء[3] والندوة[4] لبني عبد الدار كما كانت،

---

(١) انظر مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٨٩).

(٢) الحجابة: وتعنى السدانة أى حمل مفاتيح الكعبة، وكان القائم على الحجابة هو الذي يأذن للناس بدخول الكعبة(تاريخ العالم الإسلامي ص٢٦).

(٣) اللواء: العلم الذي يحمله المقاتلون أثناء المعارك والحروب (المرجع السابق ص٢٧).

(٤) دار أنشأها قصى بن كلاب في الضلع الشمالى من الكعبة، وجعلها مقراً لجلسات الملأ واستقبال الشعراء، وفض المنازعات (المرجع السابق ص٢٥ وما بعدها).

ففعلوا، ورضي كل واحد من الفريقين بذلك، وتاجز الناس على الحرب....»[1].

وكان لِفِهْر دور مهم في يوم الفِجَار الثاني وكان بعد الفيل بعشرين سنة، وموت عبد المطلب باثنتى عشرة سنة، ولم يكن في أيام العرب أشهر منه ولا أعظم، وإنما سمي الفِجّار لما استحل كِنانَة وقيس فيه من المحارم... وفي هذا اليوم خرجت قريش للموعد، على كل بطن منها رئيس، فكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه رسول الله ﷺ، وإخوته، وأبو طالب، وحمزة رضي الله عنه، والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وعلى بني أمية وأحلافها حرب بن أمية، وعلى بني مخزوم هشام بن المغيرة أبو أبي جهل، وعلى بني فِهْر عبد الله بن الجراح والد أبي عبيدة رضي الله عنه.

ولم يتوقف دور الفِهْريين السياسي بعد ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وإنما كان لهم عظيم شأن بعد الإسلام؛ ففضلا عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، كان هناك عدد كبير من القادة الذين برزوا في الفتوحات الإسلامية منهم حبيب بن مسلمة، وهو أحد القادة المبرزين في فتوحات الشام والجزيرة.

ومنهم الضّحّاك بن قيس بن خالد الفِهْري، وُلد في زمان الرسول ﷺ بعد الهجرة، وشارك في فتوحات الشام، وولّاه معاوية الكوفة، ثمّ

(١) انظر مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٩١).

عزله، ثمّ ولّاه دِمِشق، ولمـّا مات معاوية بن يزيد بن معاوية، دعا إلى نفسه، فقاتله مروان، فقُتل بمرج راهط، وكذلك ابنه عبد الرحمن الذي تولَّى دِمِشق فيما بعد، ومنهم أيضا بسر بن أبي أرطاة، وعياض بن غنم.

ولِوَلَعِ الفِهْريين كغيرهم من أهل مكة بنَظْم الشعر وقَرْضه، فقد كان لهم كثير من الشعراء المجيدين الذين يُدافعون عن شرف القبيلة، ويُلهبون مشاعر المحاربين في الحروب.

ويعتبر ضِرَار بن الخطاب بن مِرْدَاس الفِهْري من أشهر شعرائهم، وهو فارس من فرسان قريش أدرك الجاهلية والإسلام، وله شعر جيد فيهما وأسهم بشعره في حرب الفِجَار، وحروب قريش ضد الرسول ﷺ وقد حسن إسلامه؛ فشارك في حروب الردة، واستشهد يوم أَجْنَادِين، وكان يُسمَّى «شاعر قريش».

ومن شعرائهم أيضاً بسر بن أبي أرطأة، وله شعر حماسي جيد، وقد وُلد بسر قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، ثم كان إبراهيم بن علي بن سلمة بن هِرْمَة الفِهْري الذي وُلد سنة ٩٠هـ، وكان من الشعراء المعاصرين لجَرِير، قال عنه الأصمعي: خُتم الشعر بابن هِرْمَة [1].

كان هذا كل ما أسعفتنا به المراجع التي عوّلنا عليها، ولكَمْ تمنيتُ ألا تَضِنَّ عليَّ بما أردت، ولا شك أنه من الأهمية بمكان أن يتضح دور

---

(١) راجع: الدكتور السيد محمد داوود، تاريخ الدولة العربية، طبعة خاصة، د.ت.

الفِهْريين عامة، وبني الحارث خاصة، كمؤثر من المؤثرات التي أسهمت في تكوين شخصية أبي عبيدة رضي الله عنه، غير أننا يمكننا الجزم بأن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قد تأثَّر بقبيلته في جانب مهم وحيوي، وهو الجانب العسكري، فقد تربَّى على الشجاعة والإقدام، وغيرهما من لوازم الجندية.

هذا المناخ الذي نشأ فيه أبو عبيدة رضي الله عنه قبل الإسلام، كان له عظيم الأثر في حياته الحافلة، حيث أصبح فيما بعد قائداً لجيش المسلمين في كثير من المحافل، ففتح الله على يديه آذانا صُمَّاً، وقُلُوباً غُلْفاً كانت كالحجارة أو أشد قسوة.

نسبه رضي الله عنه:

هُوَ عَامِرُ بنُ عَبْدِ اللهَّ بنُ الْجَرَّاحِ بنُ هِلالِ بن أُهَيْبِ[1] بنُ ضَبَّةَ بنُ الْحَارِثِ بنُ فِهْر بنُ مَالِكِ بنُ النَضْرِ بنُ كِنانَة بنُ خُزَيْمَةَ بنُ مَدْرَكَةَ بنُ إِلْيَاسَ بن مُضَرِ بنُ نِزَارِ بنُ مَعَدِّ بن عَدْنَانَ القُرَشِيُّ الفِهْرِيُّ المكي[2].

يجتمع أبو عبيدة رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الجدِّ السابع وهو فِهْر، وقد

---

(١) وقيل وهيب (هكذا جاء في الإصابة لابن حجر العسقلاني (٢/ ١١) وتهذيب التهذيب لابن حجر أيضاً (٥/٦٦).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٤٠٩)، أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٢٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٥)، الإصابة (٢/ ١١)، البداية والنهاية (٤/ ١٢٥)، نسب قريش للزبيري ص٤٤٥، الاستيعاب لابن عبدالبر (٢/ ٣٤١)، التاريخ الكبير للبخاري (٦/ ٤٤٤)، الجرح والتعديل للرازي (٦/ ٣٢٥)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، تهذيب عبد القادر بدران (٧/ ١٦١).

اشتُهر بكُنيته ونسبته إلى جَدِّه الجراح؛ فيقال: أبوعبيدة بن الجراح، وأُمُّه: أُمُّ غَنْمٍ بِنتُ جَابِرِ بنُ عَبدِ بنُ الْعَلاءِ بنُ عَامِرِ بنُ عَمِيرَةَ بنُ وَدِيعَةَ بنُ الْحَارِثِ بنُ فِهْر[١]، قِيلَ: إنَّهَا أدرَكَتْ الإسلامَ وأسلَمتْ[٢].

كان والده عبد الله بن الجراح فارسًا من فرسان قريش، وهو الذي قاد الفِهْريين في يوم الفِجَار الثاني، والراجح أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قتله يوم بدر؛ وليس كما قال الواقدى إنه تُوفي قبل الإسلام. يقول ابن الأثير: «ولمَّا كان أبوعبيدة ببدر يوم الوقعة، جعل أبوه يتصدى له، وجعل أبوعبيدة يحيد عنه، فلمَّا أكثر أبوه قَصْدَه قتله أبوعبيدة، فأنزل الله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢] وكان الواقدي يُنكر هذا ويقول: تُوفي أبو أبي عبيدة قبل الإسلام، وقد ردَّ أهل العلم قول الواقدي..»[٣].

قال المفضل بن غسان: كان الواقدي يُنكر أن يكون أبو أبي عبيدة أدرك الإسلام، ويُنكر قول أهل الشام إن أبا عبيدة لقي أباه في زحف فقتله، وقال: سألت رجالا من بني فِهْر منهم زفر بن محمد وغيره

(١) رواه الطبراني والحاكم.
(٢) راجع طبقات ابن خياط ص٢٧، ص٣٠٠.
(٣) أسد الغابة (٣/ ٢٤).

فقالوا: توفي أبوه قبل الإسلام، ويُسْند أهل الشام ذلك إلى الأوزاعي. وهذا غَلَط كبير في قول الواقدي[1].

وقد اتّفق أكثر المؤرخين، ومنهم ابن حجر، وأبو نُعَيْم، والذهبي، على قتله لأبيه، بينما سكت عن هذا الموضوع آخرون كابن كثير، وابن سعد[2] مع أنهما أقرَّا بشهوده بدراً.

مولـــده

في يوم لا يذكره ذاكرٌ من أيام الجاهلية، وُلد ذلك الطفل الصغير، كان والده سيدا في قومه، قائداً من قادة الفِهْريين.. كان ذلك قبل الهجرة النبوية بأربعين عاماً، أي في عام (٥٨٤م) قبل بعثة النبي ﷺ بسبع وعشرين سنة، وذلك استناداً إلى ما رواه ابن سعد وابن الأثير، وغيرهما كثير: أنه توفي في طاعون عَمَوَاس[3]. في السنة الثامنة عشرة من الهجرة، وعمره آنذاك ثمانية وخمسون عاماً[4].

---

(١) تهذيب تاريخ دِمشق (٧/ ١٦١).

(٢) انظر الإصابة (٢/ ١١) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهاني (١/ ١٠١)، سير أعلام النبلاء (١/ ٨)، الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٩) وما بعدها.

(٣) سيأتى تفصيل هذا الطاعون في الفصل الأخير من الكتاب.

(٤) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٥)، أسد الغابة (٣/ ٢٦)، صفة الصفوة: ابن الجوزى (١/ ١١٦)، أعمار الأعيان لابن الجوزى / ٣٧.

ويرى ابن إسحاق أن أبا عبيدة رضي الله عنه قد عاش واحدة وأربعين سنة[١] وهذه الرواية لا تصح في الذهن مطلقاً، ذلك لأنها تجعل مولده رضي الله عنه في عام البعثة النبوية، بينما المأثور تاريخيا أنه أسلم في بداية الدعوة الإسلامية، مع أربعة آخرين، هم: عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وكان ذلك قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه.

زوجته وأولاده

لا نعلم عن حياة أبي عبيدة الأُسْرية كثيراً، فقد ضنّت علينا المصادر بأكثر تفاصيل حياته، وربما يرجع ذلك إلى انشغال المؤرخين والرواة بالجانب السياسي والحربي عند ابن الجراح رضي الله عنه، وهما الغالبان على حياته الحافلة بالفتوح والمعارك.

وإذا استأنسنا بابن سعد قليلاً، نجده يقول، «.. وكان لأبي عبيدة من الولد يزيد وعمير، وأُمّهما هند بنت وهب بن ضباب بن حجير بن عبيد بن معيص بن عامر بن لؤى، ودَرَجَ ولد أبي عبيدة بن الجراح فليس له عقب....»[٢].

---

(١) انظر الإصابة (٢/ ١٣).
(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٩).

واتفق ابن الأثير[1] والزبيري[2] مع ابن سعد على انقطاع نسله بموت أولاده، وزاد الذهبي على ذلك بقوله.... انقرض نسل أبي عبيدة، وولد إخوته جميعاً[3].

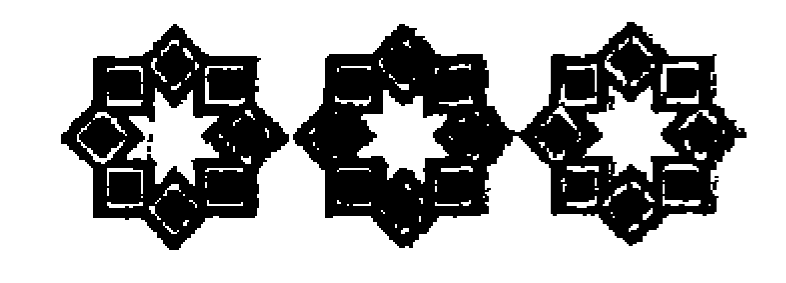
ولم تحدّد هذه المصادر ما إذا كان نسله قد انقطع في حياته، أم إنه انقطع بعد مماته، ويبدو أن أولاده قد ماتوا قبل طاعون عَمَوَاس؛ ذلك أنه لم يَرِد ذِكْرهم في الروايات التي أرَّخت لوفاته، ولا بعد وفاته.

أما عن زوجته هند بنت جابر، فالراجح أنها شهدت موته في العام الثامن عشر من الهجرة، فعن عياض بن غطيف قال: «دخلت على أبي عبيدة بن الجراح في مرضه، وامرأته نحيفة جالسة عند رأسه، وهو مُقْبل بوجهه على الجدار، فقلت كيف بات أبوعبيدة ؟! قالت: بات بأجر، فقال: إنِّى والله ما بِتُّ بأجر!! فكأن القوم ساءهم، فقال: ألا تسألونى عمَّا قلت؟! قالوا: إنا لم يعجبنا ما قلت؛ فكيف نسألك؟! قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على عياله، أو عاد مريضا، أو مَازَ[4] أذىً فالحسنة

(١) أسد الغابة (٣/ ٢٦).
(٢) نسب قريش ص٤٤٥.
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٨).
(٤) مَازَ الشيء: عزله وفرزه (مختار الصحاح/ ٦١٤).

بعشر أمثالها، والصوم جُنّة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حِطَّة»[1].

هذا كل ما عرفناه عن بيت هذا المجاهد الأمين الذي وهب حياته لإعلاء لواء هذا الدين، ولولا أن المصادر قد بخلت علينا بالمزيد من تفاصيل حياته لكانت الرؤية أوضح، ولكن لله عز وجل في خلقه شؤون.



(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩).

الفَصْلُ الثَّانِي

في صحبة النبي ﷺ

في صحبة النبي ﷺ

«ما من أحد من أصحابي، إلا لو شئت أخذت عليه في خلقه، ليس أبا عبيدة»[1] النبي ﷺ

حافلةٌ كلها حياة ابن الجراح رضي الله عنه بالكثير من المواقف المشهودة، منذ أن دخل في الإسلام وكان من السبَّاقين إلى تصديق النبي ﷺ حين جاء قومه بالرسالة الخاتمة، فآمن به حين كفر الناس، وصدَّقه حين كذَّبوه، ونَصَرَه حين قاتلوه.

وكان لإسلام أبي عبيدة رضي الله عنه المبكر عظيم الأثر في نفوس المسلمين؛ فقد خفَّف عنهم ما عانوه من صلف جحافل الكفر، وصفاقة صناديد الضلال، ذلك أنه كان من فرسان قريش الذين يُهاب جانبهم، وتُخشى شوكتهم، وقد اتفق أغلب المؤرخين وكتاب السير على أن أبا عبيدة رضي الله عنه قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولازمه حتى انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٣).

إسلامه

تُرجِّح أغلب الروايات أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أسلم مع أربعة من أوائل الصحابة وهم «عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وعبيدة ابن الحارث، وأبو سلمة بن عبد الأسد، فقد أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام، وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم....»[1].

ظل النبي ﷺ يدعو الناس سراً إلى الدين الجديد، فآمن له نفرٌ قليلٌ من بسطاء قريش، وكان يلتقي بهم سراً ليؤدوا عبادتهم في شعاب مكة ووديانها خوفاً من بطش قريش، حتى زاد عدد المسلمين على الثلاثين فاختار لهم دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وظل الأمر على هذا الحال حتى أمر الله عز وجل نبيه أن يصدع بما جاءه من الحق، فقال تعالى ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤-٢١٥]، فلم يدخر وسعاً في تبليغ دعوة الله عز وجل فجمع قومه من حوله منادياً فيهم:

«يا بني كعب بن لؤي: أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٨)، وانظر الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٩)، الإصابة (٢/ ١١)، تهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٦١).

محمد: أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»

فما كان جواب قومه إلا أن أنكروا عليه دعوته، وأهانوه بالغ الإهانة؛ بل واضطهدوا أصحابه، فأنزلوا بهم من العذاب والتنكيل ما تنوء به شم الجبال.

هجرته إلى الحبشة

لم يجد النبي ﷺ بُدّاً من أن يأمر أصحابه -الذين اشتد بهم العذاب في مكة- بالهجرة إلى الحبشة، ففيها ملك لا يُظلم عنده أحد، فهاجر المسلمون إليها، واستقبلهم النجاشي استقبالا حافلاً، وأكرم نزلهم، وكان أبو عبيدة من السابقين إلى الهجرة، ولـمَ لا؟! فقد آمن بالنبي في وقت مبكر، يقول ابن سعد «هاجر أبو عبيدة إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية»[1].

وقال الذهبي «وكان ممن هاجر إلى الحبشة، قالها ابن إسحاق والواقدي، قُلت - والحديث لايزال للذهبي-: إن كان هاجر إليها؛ فإنه لم يُطل بها اللبث...»[2]، وفى كلام الذهبي ترجيح لكونه رضي الله عنه قد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ويبدو ذلك من قوله عن أبي عبيدة رضي الله عنه: إن كان هاجر إليها فإنه لم يُطل بها اللبث.

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٨)، وانظر مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٢١٠ وما بعدها).

هجرته إلى المدينة

لم يلبث المسلمون كثيراً في مكة بعد إيابهم، حتى اشتدَّ بهم أذى المشركين الذين ساموهم سوء العذاب، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فأمر النبي أصحابه بالهجرة إلى المدينة.

وما إن وصل ﷺ إلى المدينة حتى أسرع في المؤاخاة بين المهاجرين وإخوانهم من الأنصار، واضعًا بذلك اللبنة الأولى في صرح المجتمع الإسلامي، راسمًا بها أول طرق النصر والتمكين لهذا الدين، فأي الروابط أقوى من رابطة الإسلام، وأي أخوة أصدق من أُخوّته ؟ !!

اختلفت الروايات حول الصحابي الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فذهب ابن إسحاق[1] والواقدى[2] إلى أنه سعد بن معاذ رضي الله عنه، وذهب آخرون إلى القول بأنه سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه [3] بينما ذهب فريق ثالث إلى أنه محمد بن مسلمة رضي الله عنه [4] بيد أننا نرجح ما ذهب إليه ابن كثير، فقد قال معلقاً على رأي ابن إسحاق «وقوله: وكان أبوعبيدة وسعد بن معاذ أخوين مخالف لما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن الرسول ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح

(١) مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٣١٨).
(٢) الإصابة (٢/ ١١).
(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٠).
(٤) المرجع السابق.

وبين أبي طلحة، وكذا رواه مسلم، وهذا أصح مما ذكره ابن إسحاق من مؤاخاة أبي عبيدة وسعد بن معاذ»[1] وإلى هذا أيضاً ذهب ابن الأثير، يقول «ولمَّا هاجر أبوعبيدة بن الجراح آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي طلحة الأنصارى»[2]

سرية حمزة بن عبد المطلب

استقر الأمر بالنبي ﷺ، في المدينة بعد الهجرة، فلمَّا كان شهر رمضان.. أي بعد سبعة أشهر من الهجرة تقريباً ـ عقد لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أول لواء بعد الهجرة، وندبه أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلاً للاستيلاء على تجارة لقريش كانت آتية من الشام تحت قيادة أبي جهل.

وقد ضمَّت هذه السرية «خمسة عشر من المهاجرين، وخمسة عشر من الأنصار، فكان من المهاجرين: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعامر بن ربيعة، وعمرو بن سراقة، وزيد بن حارثة، وكناز بن الحصين وابنه مرثد بن كناز، وأنس مولى رسول الله ﷺ، في رجال، ومن الأنصار: أُبيُّ بن كعب، وعمارة ابن حزم، وعبادة بن الصامت، وعبيد بن أوس، وأوس بن خولي، وأبو دجانة، والمنذر بن عمرو، ورافع بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٢٠٤).
(٢) أسد الغابة (٣/ ٢٥).

حرام، وقطبة بن عامر بن حديدة في رجال لم يُسمّوا لنا».

وصادفت السرية تجارة قريش عند سيف البحر بساحل البحر الأحمر، فتصافَّ الفريقان للقتال، غير أن مجدي بن عمرو ـ وكان حليفاً للفريقين معاً ـ حجز بينهما حتى انصرف أبو جهل إلى مكة، وقفل حمزة إلى المدينة، وكفى الله المؤمنين القتال، وبلغ ذلك النبي ﷺ فأثنى على مجدي بن عمرو فقال إنه: رشيد الأمر[1].

غزوة بدر الكبرى

اتفق أغلب الرواة – تقريباً – على أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قد شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، يقول ابن حجر: شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ[2]، ويقول ابن سعد «وشهد أبوعبيدة الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ »[3] وقال ابن الأثير: «شهد بدراً، وأُحداً، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ »[4].

استقر الأمر بالمسلمين في المدينة بعد الهجرة، وعاش المهاجرون في ضيافة الأنصار يأكلون مما يأكلون منه ويشربون مما يشربون، حتى إذا كانت السنة الثانية من الهجرة، علم النبي ﷺ بقافلة لقريش قادمة من

---

(١) المغازي للواقدي (١/ ٩-١٠) بتصرف.
(٢) تهذيب التهذيب (٥/ ٦٦) بتصرف.
(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٠).
(٤) أسد الغابة (٣/ ٢٤).

الشام، بقيادة أبي سفيان بن حرب، فندب إليها بعضاً من أصحابه قائلاً لهم: «هذه عير قريش ! فاخرجوا لعل الله أن يُنفلكموها»؛ فخرج ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر -وقيل سبعة عشر- رجلاً أكثرهم من الأنصار.

اشتدت المعركة، وحمي الوطيس، وأظهر الله رسوله ﷺ وأصحابه، فقتل من المشركين ما يربو على السبعين، وعلى رأس هؤلاء أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة. وأُسر أيضاً نحو سبعين رجلاً، منهم عقبة بن أبي معيط، والنضر ابن الحارث، وكانا من أشد الكفار استهزاء بالنبي ﷺ وإيذاء له، وقد أمر النبي ﷺ بقتلهما بعد أن أُسرا، فقد كان من أشد الناس عداءً وإيذاءً للإسلام ونبيه ﷺ.

وقد تجلَّت المواقف الإيمانية لكثير من صحابة الرسول ﷺ في هذه المعركة فتقطَّعت الأنساب والأرحام يومئذ بينهم وبين ذويهم من الكفار، فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبحث عن ولده عبدالرحمن ليقتله، بينما يتوارى الولد من أبيه.

وكذلك مصعب بن عمير رضي الله عنه وقد تفقد الأسرى فوجد أخاه «عبيد بن عمير» أسيرا لأحد الأنصار، فقال للأنصاري الذي كان يشدُّ وَثَاقَه: أحكم وَثَاقَهَ، فإن أُمَّهَ ذات متاع كثير، ولعلها تفديه بمال وفير، فقال الأخ الأسير مندهشاً: أولستُ أنا أخوك ! قال: لا، إنما هذا أخي

دُونَك – يقصد الأنصاري.

أما أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه فقد ضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء، حقاً الولاء لله، ولدينه، ولرسوله، وللمؤمنين، والبراء من كل من خالف الله ورسوله، ولو كان المخالف أباه، ولا غرو في ذلك، فقد كان أبوعبيدة ممن كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه.

ولنا أن نتصور أن أغلب الروايات تصوِّر أن أباه جعل يتصدى له يريد قتله. ولكن أبا عبيدة رضي الله عنه كان بارًا بوالده فلم يشأ قتله، وظل يُمهله ويهرب منه، وربما تركه لغيره حتى لا يُقتل بيده، ولكن الوالد كان مُصرّاً على موقفه المؤيِّد للكفر والضلال، ويالها من لحظات عصيبة يعجز العقل البشري عن تصورها، تلك التي يتخلَّى فيها الولد عن بنوته ليقتل أباه الذي حادَّ الله ورسوله وأصرَّ على كفره.

وقد شغلت قضية قتل أبي عبيدة رضي الله عنه لأبيه كثيراً من المؤرخين الذين اختلفوا في صحة هذا الحدث، يقول ابن الأثير «... ولما كان أبوعبيدة ببدر يوم الوقعة جعل أبوه يتصدى له، وجعل أبوعبيدة يحيد عنه، فلما أكثر أبوه قصده قتله أبوعبيدة، فأنزل الله تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[المجادلة : ٢٢][1].

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٢٤).

ويقول ابن حجر «... قتل أباه يوم بدر، ونزلت فيه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ..﴾[١]

ويقول الذهبي «.... وقد شهد أبو عبيدة بدراً فقتل يومئذ أباه...»[٢].

وأنكر الواقدي أن يكون أبو عبيدة رضي الله عنه قد قتل أباه، معللا بأن أباه قد مات قبل أن يدركه الإسلام، بيد أن كثيراً من أهل العلم ردَّ هذا القول على الواقدي، ومن هؤلاء ابن الأثير الذي يقول «.... وكان الواقدي يُنكر هذا، ويقول: توفي أبو أبي عبيدة قبل الإسلام، وقد ردَّ أهل العلم قول الواقدي...»[٣].

ولمَّا كان يوم بدر -يوم الفرقان يوم التقى الجمعان- يوم امتحان وابتلاء، ويوماً فرق الله فيه بين الحق والباطل، فقد أجزل الله عز وجل فيه العطاء لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين صبروا وصابروا ورابطوا، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل النار رجل شهد بدراً أو الحديبية[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم[٥]. وقد وردت أحاديث

---

(١) الإصابة (٢/ ١١). والآية ٢٢ من سورة المجادلة.
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٨)، وانظر حلية الأولياء (١/ ١٠١).
(٣) أسد الغابة (٣/ ٢٤).
(٤) قال الحافظ ابن كثير: تفرد به أحمد وهو على شرط مسلم (البداية والنهاية ٢/ ٣٨٤)
(٥) قال الحافظ ابن كثير: رواه أبو داود وأحمد (المرجع السابق).

أخرى في فضل من شهد بدرًا من صحابة رسول الله ﷺ، بل ومن الملائكة الذين شهدوا هذه المعركة التي كُسرت بها شوكة المشركين، وتأكدت لهم قوة المسلمين الكامنة في عقيدتهم الراسخة وإيمانهم القوي.

يوم أحد

لم يمض وقت طويل على يوم بدر، حتى تجهَّز الكفار لملاقاة النبي ﷺ وأصحابه، واضعين نُصب أعينهم ما حدث لهم يوم بدر حيث قُتل الكثير من صناديدهم، وأُسر البعض الآخر من قادتهم. مما هزَّ كيانهم، وأضعف موقفهم أمام القبائل الأخرى.

خرج الأعداء في ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحدها، وانضمت إليهم كثير من القبائل الأخرى، وخلفهم النساء يضربن بالدفوف، ويحملن المعازف والخمور، واصطحب أشرافهم نساءهم معهم حتى لا تُحدّثهم أنفسهم بالرجوع مرة أخرى.

وعلى الجانب الآخر خرج النبي ﷺ من المدينة في ألف رجل من المهاجرين والأنصار، حتى إذا كان بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبي ابن سلول كبير المنافقين بثلاثمائة من أتباعه، قائلين: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهذا هو حال المنافقين في كل العصور والأزمان؛ فهم لا يتركون فرصة تسنح لهم للنيل من المؤمنين إلا أحسنوا استغلالها؛ ولكن الله تعالى متم نوره ولو كرهوا.

بدأ القتال، وأظهر الله النبي ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - فقتلوا من الكفار عدداً كبيراً، وولَّى كثير منهم الأدبار، ونزل الرماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين من على ظهر الجبل، وانشغلوا مع غيرهم من المسلمين بجمع الغنائم، فرأى ذلك خالد بن الوليد - وهو يومئذ مشرك - فانقضَّ عليهم من الخلف؛ فتفرَّق المسلمون واضطربوا؛ وأراد المشركون قتل النبي ﷺ وثبت معه جماعة من المسلمين فلم يكن النبي ﷺ أحب إليهم من أهليهم وأموالهم فحسب؛ وإنما كان أحب إليهم من أنفسهم التي بين أضلعهم.. إنه حب من نوع خاص لا يرقى إليه حب مهما كان الأمر.

يقول ابن إسحاق «.... كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحن المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخفٍ بالكفر في قلبه، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته...»[1].

وقد تفرّق المسلمون عن رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا «أربعة عشر رجلا، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، فمن المهاجرين: أبو بكر، عبد الرحمن بن عوف، وعلى بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، ومن

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٤٥٨).

الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ»[١].

ونال النبي ﷺ يومئذ أذى شديد، فوقع في حفرة كان المشركون قد حفروها وغطوها، فشج في رأسه، وجرح وجهه الشريف، ودخلت فيه حلقتا المِغفْرَ، وقد أبلى أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه «... يوم أحد بلاء حسنا، ونزع يومئذ الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنة رسول الله ﷺ من ضربة أصابته، فانقلعت ثنيتاه، فحسن بذهابهما، حتى قيل ما رؤى هتم قط أحسن منه...»[٢].

ولنترك أبا بكر الصديق رضي الله عنه فليحدثنا عن هذا المشهد المهيب، فعَنْ أُم المُؤمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالتْ: كَانَ أَبُو بَكرٍ رضي الله عنه إذا ذُكرِ يوم أحدٍ بَكَى، ثُمَّ قَالَ: ذَاكَ كُلُّهُ يومُ طَلحَةَ للهَ، ثُمَّ أَنْشَأ يُحَدِّثُ قَالَ: كُنتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ يَومَ أُحُدٍ، فَرَأَيتُ رَجُلاً يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ - دُونَهُ - وأُرَاهُ قَالَ: يَحمِيهِ - قَالَ: فَقُلتُ: كُنْ طَلحَةَ! حَيثُ فَاتَنِي مَا فَاتَنِي، فَقُلتُ: يَكُونُ رَجُلاً مِنْ قَومِي، أَحَبُّ إِلَيَّ وبَينِي وبينَ المَشرِقِ رَجُلٌ لا أعِرفُهُ، وأنا أقرَبُ إلى رَسُولِ الله ﷺ مِنهُ، وهُوَ يَخطَفُ المَشيَ خَطْفَاً، لا أخطَفُهُ

(١) كتاب المغازي (١/ ٢٤٠) (بتصرف).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٨)، والمغفر: ذرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة (مختار الصحاح ص٤٧٦)، الثنية: واحدة الثنايا من السن (المرجع السابق ص٨٨)، وهتم الشئ هتما: كسره، والأهتم من تكسرت ثناياه من أصلها (المعجم الوجيز ٦٤٤).

فَإِذَا هُوَ أبو عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاحِ، فانتهينا إِلى رَسُولِ الله ﷺ وقَدْ كُسِرَتْ رُبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ فِي وَجهِهِ، وقَدْ دَخَلَ فِي وَجْنَتِهِ حَلَقَتَانِ مِنَ حَلَقِ المِغفَرِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «عَليكُمَا صَاحِبُكُمَا» يُرِيدُ طَلحَةَ، وقَد نَزَفَ لا يُلتَفَتُ إِلى قَولِهِ، وَذَهَبتُ لأنزَعَ ذاك مِن وَجهِهِ، فَقَالَ أبو عُبَيْدَةَ: أقسَمتُ عَليكَ بِحَقِّي مَا تَركتَنِي! فتَرَكتُهُ، فكَرِهَ أَنْ يَتَنَاوَلهُمَا بِيَدِهِ فَيُؤذِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فأَزَمَ عَلَيهِمَا بِفِيهِ، فَاستَخرَجَ إحْدى الحَلَقَتَينِ، وَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ مَعَ الحَلَقَةِ، وَذَهَبتُ لأَصنَعَ مَا صَنَعَ، فَقَالَ: أقسَمتُ عَليكَ بِحَقِّي مَا تَركتَنِي! قال: فَفَعَلَ مِثلَ مَا فَعَلَ فِي المَرَّةِ الأولى، فَوَقَعَتِ ثَنِيَّتُه الأُخرَى مَعَ الحَلَقَةِ، فَكَانَ أبو عُبَيْدَةَ مِن أحسَنِ النَاسِ هَتَمًا، فأصلَحنَا مِن شَأنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أتينا طَلحَةَ فِي بَعضِ تِلكَ الجِفَارِ، فإِذَا بِهِ بِضْعٌ وَسَبعُونَ - أو أقَلُّ أو أكثَرُ - بَينَ طَعنَةٍ وَرَميَةٍ وضَربَةٍ، وإِذا قَد قُطِعَت أصَابِعَهُ، فَأَصلحنَا مِنْ شَأنِهِ»[1].

ويروى ابن هشام عن السيدة عائشة - أم المؤمنين رضي الله عنها - عن أبي

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٩١) والطيالسي (٦) وأبو نعيم (٨/ ١٧٤) وابن حبان (٦٩٨٠) والبزار (٦٣) وابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/ ١٧٥-١٧٦) من طريق إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عيسى بن طلحة عن عائشة به قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٤٥): «وقد ضعَّف علي بن المديني هذا الحديث من جهة إسحاق بن يحيى» لكن لبعض مقاطعه شواهد في الصحيح، فقصة جرح النبي ﷺ أخرجها البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٠)، وقصة طلحة أخرجها النسائي (٣١٤٩) بسند رجاله ثقات. راجع الشذا الفياح لأبي الحسنات الدمشقي، وانظر: تاريخ الإسلام (١/ ٣٢٤).

بكر الصديق «أن أبا عبيدة بن الجراح نزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ فسقطت ثنيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتين..»[1]

سرية أبي سلمة بن عبد الأسد

بلغ النبي ﷺ - بعد شهرين من أُحد على الأرجح - أن طليحة وسلمة ابنيْ خويلد يحرّضان قومهما، وحلفاءهم على مهاجمة المسلمين في المدينة ظناً منهم أن المسلمين قد وهنوا وكُسرت شوكتهم لما أصابهم في يوم أحد من بلاء.

ولنستأنس بابن كثير فليحدثنا عن هذه السرية، يقول «... شهد أبو سلمة أحداً، فجرح جرحاً على عضده، فأقام شهرين يداوى، فلما كان المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة، ودعاه رسول الله ﷺ فقال: اخرج في هذه السرية، فقد استعملتك عليها، وعُقد له لواءً، وقال: سر حتى تأتى أرض بني أسد فأَغِرْ عليهم، وأوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة... فلما انتهوا إلى أرضهم تفرّقوا وتركوا نعماً كثيراً لهم من الإبل والغنم، فأخذ ذلك أبو سلمة، وأسر منهم..»[2] وكان أبو عبيدة ضمن الصحابة الذين كانوا مع أبي

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٧)، وانظر أسد الغابة (٣/ ٢٤)، والطبقات الكبرى (٣/ ٤١٠)، والبداية والنهاية (٢/ ١٢٥).
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٤٧٧).

سلمة وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير...»[(١)].

غزوة الخندق

وتسمى أيضا غزوة الأحزاب، وكانت في شوال في السنة الخامسة من الهجرة، وسببها أن بني النضير حرضوا قريشاً وبعض القبائل الأخرى بعد إجلائهم، وحزَّبوا الأحزاب ضد النبي ﷺ واتجهوا نحو المدينة، فعلم النبي ﷺ بما كان من القوم، فاستشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة؛ فنزل على رأيه وكان الحفر.

وصل الأحزاب إلى مشارف المدينة وعددهم يومئذ عشرة آلاف، وعدد المسلمين ثلاثة آلاف، وما أن زحف الليل على أرض المعركة بعباءته السوداء حتى أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة، في ليلة شديدة الزمهرير؛ فارتعدت فرائص المشركين، وولوا مدبرين؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[الأحزاب:٩-١١] إلى قوله تعالى ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ

---

(١) انظر: حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص٢٤٨.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧] وقد شارك أبو عبيدة رضي الله عنه في هذه الغزوة أيضاً. يقول ابن سعد «وشهد أبوعبيدة الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم...»[١].

سرية ذي القصة

في ربيع الأول من العام السادس للهجرة، بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن قوماً بذى القصة[٢] يتجهزون لسلب نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء[٣] فأرسل لهم النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة رضي الله عنه في عشرة من المسلمين، فظهر عليهم القوم فقتلوهم جميعاً إلا محمداً، وقد ظنوا أنه مات، فعاد إلى المدينة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كان من أمرهم، فأرسل صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ليقتص من الأعداء فلما أدرك ديارهم وجدهم قد تشتتوا

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٠).

(٢) ذو القصة: موضع يبعد عن المدينة ٢٤ ميلاً.

(٣) الهَيْفاء: موضع آخر قرب المدينة، ولم يورد ياقوت الحموى الموضعين في معجم البلدان، انظر السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة لمحمد فريد وجدى ص٢٢٧.

في الصحراء، فاستاق نعمهم ورجع [١].

يقول ابن كثير «... كان بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة لأربعين رجلاً أيضاً فساروا إليهم مشاة حتى أتوها في عماية الصبح فهربوا منهم في رؤوس الجبال، فأسر منهم رجلاً فقدم به على رسول الله ﷺ..» [٢].

غزوة الحديبية

في السنة السادسة من الهجرة أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنه يريد العمرة، وطلب إلي الأعراب المحيطين بالمدينة أن يخرجوا معه، ولكنهم تلكَّأوا ثم قالوا له: قد شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا؛ فتركهم ﷺ وخرج في ألف وأربعمائة من أصحابه ليس عليهم من السلاح شيء غير السيوف؛ فجاءه الخبر بأن قريشاً أحست بمجيئهم وأجمعت على صدهم، فاتبع المسلمون طريقاً غير الطريقة المعروفة ونزلوا بالحديبية، فأقبل سفير لقريش يدعي بديل بن ورقاء يسأل عن سبب قدوم المسلمين فأخبره ﷺ بأنه جاء معتمراً، ثم حدث صلح بين المسلمين والمشركين، على ألا يعتمروا هذا العام، ولكن العام القادم. وألا يتقبَّلوا من يجيئهم من مكة مسلماً، وتَقْبَل قريش من يأتيها مرتداً فلا ترده،

---

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص٢٢٥ بتصرف.
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٦١١).

وسُمي هذا الصلح «صلح الحديبية».

وقد كان لأبي عبيدة ﷺ دوره في هذا الصلح، إذ إن بعض أصحاب النبي ﷺ، كرهوا الصلح اعتقاداً منهم بأنهم بهذا الصلح يُعطون الدنية في دينهم، قال الواقدي «قالوا: فلما اصطلحوا فلم يبق إلا الكتاب، وثب عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين؟ قال رسول الله ﷺ: بلى ! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال ﷺ: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخلف أمره، ولن يضيعني. فذهب عمر إلي أبي بكر ﷺ فقال: يا أبا بكر، ألسنا بالمسلمين ؟ فقال: بلى! فقال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا؟! فقال أبو بكر: الزم غرزه! فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن نخالف أمر الله، ولن يضيعه الله! ولقي عمر من القضية أمراً كبيراً، وجعل يرد على رسول الله ﷺ الكلام ويقول: علام نعطي الدنية في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: أنا رسول الله ولن يضيعني ! قال: فجعل يرد على النبي ﷺ الكلام. قال: أبو عبيدة بن الجراح: ألا تسمع يا ابن الخطاب؟! رسول الله يقول ما يقول؛ تعوذ بالله من الشيطان، واتهم رأيك ! قال عمر ﷺ: فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حياءً، فما أصابني قط شيء مثل ذلك اليوم، وما زلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ [١]».

---

(١) المغازي (٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧).

وهكذا جاء رد أبي عبيدة رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاسماً، وفي وقت عصيب على المسلمين الذين رأوا في هذا الصلح خضوعا غير مقبول، وإذلالا لهم، ولكن الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، أجرى الحق على لسان أبي عبيدة... وتلك حكمة آتاه الله عز وجل إياها، ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

وعرف المسلمون بأن صلح الحديبية كان مصلحة أكيدة لهم، إذ فيه اعتراف بكيان الإسلام، حيث كان الصلح مكتوباً وموقعاً. ثم في العام القادم تُخلي قريش لهم لأداء العمرة، ثم حدث ما لم يكن متوقعاً، فالذين أسلموا وتركوا مكة لمّا علموا أن محمداً لن يقبلهم احتراماً لشروط الصلح، لم يرجعوا إلى مكة؛ وإنما تجمعوا في أماكن بالصحراء صارت فيما بعد محطات نضال ضد الكافرين.. وكان أمر الله قدرا مقدورا.

غزوة ذات السلاسل

أراد النبي صلى الله عليه وسلم بعد مرور شهر – وربما أقل – على غزوة مؤته أن يسترد هيبة المسلمين في شمال شبة الجزيرة العربية، فأرسل صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بني بلى بن عمرو «.... وهى قبيلة عظيمة من قضاعة، تقع مساكنها بين المدينة ووادى القرى.... »[1].

(١) معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة (١/ ١٠٤)، ومؤته: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: من مشارف الشام، انظر معجم البلدان لياقوت الحموى(٨/ ١٩٠).

يقول ابن هشام «.... حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يُقال له السلسل – وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل – فلما كان عليه خاف، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئت مدداً لي، قال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه. وكان أبو عبيدة رجلاً لينًا سهلاً، هينًا عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: بل أنت مدد لي. فقال أبو عبيدة يا عمرو، إن رسول الله قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك. قال: فإني الأمير عليك وأنت مدد لي، قال: فدونك، فصلى عمرو بالناس....»[1].

ويروي ابن كثير عن الواقدي «... أن النبي ﷺ حين علم بما كان من أمرهما، قال ﷺ: يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح....»[2].

وهكذا نجحت هذه السرية في إعادة هيبة المسلمين، بعد أن اهتزت صورتهم في عيون القبائل بالشام، ولولا فضل الله ﷻ ثم حلم أبي عبيدة رضي الله عنه وعزوفه عن أمر الدنيا، لكان بأس المسلمين بينهم شديداً. وقد كان لانصياع أبي عبيدة رضي الله عنه لأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه الأثر الأكبر

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٩).
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٧٢٥).

في وأد الفتنة التي كادت تفتك بجيش المسلمين، ولكن الله سلَّم.

ولابد لنا في هذا المقام أن نذكر درساً مهماً من حياة ابن الجراح، هذا المجاهد الأمين، وهو طاعته للنبي ﷺ الذي أوصاه بألا يختلف مع عمرو بن العاص، وكأنه ﷺ كان يتوقع هذا الأمر فهو خبير بأصحابه، ولعلها قمة الطواعية لأمر النبي ﷺ أن يقول أبو عبيدة رضي الله عنه لعمرو بن العاص رضي الله عنه: رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك. إنه الحلم في مقابل الغضب.. وإنكار الذات في مقابل الأنا.. صفات ليست لأحد سوى هذا القائد الأمين.

غزوة الخبط (سيف البحر)

كانت هذه السرية في العام الثامن من الهجرة على الأرجح، ويرى ابن كثير أنها كانت قبل صلح الحديبية في العام السادس، وعلى الرغم من ذلك فقد وضعها في كتابه «البداية والنهاية» بعد غزوة مؤتة وقبل غزوة الفتح، وهو يقول في ذلك «.... هذه السرية كانت قبل صلح الحديبية، ولكن أوردناها هاهنا تبعاً للحافظ البيهقي رحمه الله فإنه أوردها بعد مؤتة، وقبل غزوة الفتح..»[1] والأرجح أنها -كما قال الخضري- كانت في العام الثامن من الهجرة وبالتحديد في شهر رجب[2].

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٧٢٨).
(٢) نور اليقين ص٢٧١ وما بعدها.

وقد أرسل النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على رأس ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة، وهي قبيلة كانت تسكن ساحل البحر، فأقاموا أكثر من نصف شهر، يأكلون التمر، ويشربون الماء، حتى كان نصيب أحدهم يقل إلى تمرة واحدة في اليوم كله، حتى نفد ما كان معهم من التمر، فأكلوا الخَبَط - وهو ورق الشجر الجاف - حتى تقرَّحت أفواههم. وكان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه من بين الفرسان فنحر لهم ثلاثة جزر، في كل يوم جزوراً، بيد أن أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه عن ذلك؛ لأن قيساً كان أخذ تلك الجُزُر بدَيْن على أبيه، فخاف ابن الجراح رضي الله عنه ألا يقدر أبوه على سدِّ الدين عنه، وقد صوَّر شاعر الإلياذة أحمد محرم هذا الموقف بين قيس وأبي عبيدة رضي الله عنه تصويرا رائعا فقال:

أبا عبيدةَ لولا أن عزمتَ على قيس ... لأمعنَ قيسٌ أيَ إمعانِ

يقول إذْ رُحتَ تنهاهُ وتمنعُهُ: ... أبا عبيدة، مهلاً كيف تنهاني؟!

أنا ابنُ سعدٍ، وسعدٌ أنت تعرفه ... مولى العشيرةِ من قاصٍ ومن دانِ

يكفي المهمَّ إذا ضاقَ الكُفاةُ به ... ويُطعمُ الناسَ من مثنىً ووحدانِ

أأصنعُ الصنعَ محمودًا فيخذلني ... أبٌ أراه لغيري خيرَ مِعوانِ؟!

لا يبعد الله منه والندَا حدبًا ... سمح الخلائق أرعاه ويرعاني

وفي رواية ابن إسحاق: «بعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف

البحر عليهم أبو عبيدة بن الجراح، وزودوهم جراباً من تمر، فجعل يقوتهم إياه، حتى صار إلى أن يَعُدُّه عليهم عدداً، قال: ثم نفد التمر، حتى كان يعطي كل رجل منهم كل يوم تمرة، قال: فقسَّمها يوماً بيننا. قال: فنقصت تمرة عن رجل، فوجدنا فقدها ذلك اليوم. قال: فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر، فأصبنا من لحمها ووَدَكِها، وأقمنا عليها عشرين ليلة، حتى سَمِنَّا وابتللنا..»[1].

هذه رواية ابن إسحاق، ولكم تدل على مدى العناء والشظف الذي لاقاه المسلمون في هذه السرية، حتى اضطروا إلى أكل ورق الأشجار الجاف، ويبلغ بهم أن يعاني معسكرهم من فقد تمرة أحدهم، وهي كل نصيبه من طعام اليوم والليلة.. فأي إيمان هذا.. وأي عزيمة تلك؟! لا شك أنه الإيمان الذي طويت له الأرض كلها، ودانت له مشارق الأرض ومغاربها.

ويبدو فقه أبي عبيدة عندما جاع عسكره، فألقى لهم البحر حوت العنبر، فقال، أبو عبيدة ﵁: ميتة، ثم قال: لا، نحن رُسُلُ رسولِ الله، وفي سبيل الله فكلوا....[2].

وفي حديث جابر ﵁ «.... فقال أبو عبيدة: ميتة لا تأكلوا، ثم قال: جيش رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، ونحن مضطرون»[3] فبعد أن

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (٢/ ٢٨٦) وما بعدها، والودك: الشحم، وابتللنا: شبعنا.
(٢) قال الذهبي: وهو في الصحيحين (١/ ٢٠).
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٤١١).

قرر أبوعبيدة أن الحوت ميته لا يجوز أكلها، تذكَّر أنه ليس على المضطر حرج في الأكل من الميتة، عملاً بقول الله ﷻ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٧٣].

وهكذا جمع أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه بين فقه الحرب، وفقه هذا الدين حين صرَّح لأصحابه بالأكل من السمك الميت، ومن المؤكَّد أن اجتهاد أبي عبيدة كان سابقاً لحديث رسول الله ﷺ الذي أحل فيه أكل السمك الميت «أُحلت لنا ميتتان ودَمَان: أمّا الميتتان فالسمك والجَرَاد. وأمّا الدَّمَان فالكبد والطِّحَال»[1].

فتح مكة

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] هذا هو وعد الله ﷻ لنبيه ﷺ حين خرج مهاجراً إلى المدينة، فقد فارق مكة والألم يعتصر قلبه مردداً مقولته التي حُفرت في ذاكرة التاريخ، شاهدة على عظمة حبه لأم القرى: «والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وإنك لأحب بلاد الله إليَّ، ولولا أن أهلَكِ أخرجوني منك ما خرجت».

---

(١) الموطأ، الإمام مالك، كتب الضحايا حديث رقم ٦٤٨. الترمذي، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، حديث رقم ٦٩. ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، حديث رقم ٣٣١٤).

أقام النبي ﷺ في المدينة ثمانية أعوام مع أصحابه يراودهم الأمل في العودة، وتتوق نفوسهم إلى أم القرى، وكيف لا؟!، ففيها ولدوا، وفي شعابها تربوا، وبين أهلها نشأوا وترعرعوا..لكل هذا عاش النبي ﷺ والمهاجرون يحدوهم الأمل في الإياب يوماً ما.

نقض أهل مكة الهدنة التي سبق أن عقدوها مع النبي ﷺ في السنة السادسة للهجرة، فقد أغار حلفاؤهم من بني بكر على قبيلة خزاعة حليفة المسلمين، فاستجارت خزاعة بالنبي ﷺ، فسار إليهم في جيش جرار، قال ابن إسحاق «.... وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف[1].

وقسّم النبي ﷺ الجيش أربع فرق، وأمرها جميعاً ألا تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا أُكرهت على ذلك إكراهاً، واضطُرت إليه اضطراراً، وجعل الزبير بن العوام رضي الله عنه على الجناح الأيسر من الجيش، وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد رضي الله عنه على الجناح الأيمن، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عبادة رضي الله عنه على أهل المدينة، ليدخلوا مكة من جانبها الغربي، أما أبو عبيده بن الجراح رضي الله عنه فجعله محمد ﷺ على المهاجرين، وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها...»[2].

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (٢/ ١٥٤).
(٢) حياة محمد ص٣٣٦.

جعل ﷺ أبا عبيده رضي الله عنه أحد قاده هذا الجيش المرعب المخيف، الذي لم تر مكة مثله قط، يقول ابن إسحاق «..وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ ودخل رسول الله ﷺ على أذخر[1] حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هنالك قبته..»[2].

ودخل النبي ﷺ مكه راكباً دابته، خافضاً رأسه تواضعاً لله لاهجاً لسانه بقوله سبحانه ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١] وفتحت مكه بلا قتال، وعاد المخرجون من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، عادوا إلى ذويهم شامخة نفوسهم بعد ثمان سنوات من الغربة الموحشة التي قضَّت مضاجعهم، وصدق وعد الله تعالى ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:٢٧].

شبهة مردودة

جاء في دائرة المعارف للبستانى حكاية أظنها مجافيه للحقيقة وبعيده عنها كل البعد، ففي معرض كلامه عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

(١) أذخر: مكان بمكة، انظر معجم البلدان (١/ ١٥٨).
(٢) مختصر سيرة ابن هشام (٢/ ١٤١)، وانظر البداية والنهاية (٢/ ٧٥٠).

يقول: «...وكان يحب صحبته والالتصاق به؛ فلم يكن يريد فراقه ألبته، قيل إنه كان في السنة الثانية من الهجرة، أراد الرسول أن يرسله في سرية للغزو فتجهز، ولما أراد المسير بكى صبابةً إلى الرسول فردَّه، وبعث مكانه عبد الله بن جحش»[1].

كان لابد من مراجعة متأنية لأخبار هذه السرية بين كتب التراث العتيقة لنتحقق من هذا الكلام، والوقوف على مدى صحته، وبعد بحثٍ مُضنٍ وجدتُ إشارتين يسيرتين عند ابن الأثير وكذلك ابن كثير، يقول ابن الأثير «أمر رسول ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أن يتجهز للغزو فلما أراد المسير بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فبعث مكانه عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة»[2].

وإذا استأنسنا بابن كثير نجده يروى حديثاً عن جندب بن عبد الله «أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش»[3].

وبالتأمل في الحديث السابق نجد أن الراوى قد شكَّ في القائد

---

(١) دائرة المعارف لبطرس البستاني (٢/ ٢٤٤).
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ١١٣).
(٣) البداية والنهاية (٢/ ٢٩٢).

الـذي أراد النبـي ﷺ أن يبعثـه أول الأمـر، أهـو أبو عبيـدة بـن الجـراح رضي الله عنه ؟ أم عبيدة بن الحارث رضي الله عنه ؟ ونحـن بـدورنا وفي ضـوء دراسـتنا لحياة ابن الجراح رضي الله عنه، وجهاده مع النبي ﷺ يمكننا القول بـأن القائـد الذي أراده النبي ﷺ أول الأمر قـد يكـون عبيـدة بـن الحـارث؛ لأن أبـا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كان من أشجع الناس وأكثرهم إقـداما سـواء في الغـزوات والـسرايا في عـصر النبـوه، أم في الفتوحـات في عهـد الخلافـة الراشدة، ولست أعتقد أن حبَّه للنبي ﷺ يثنيه عـن الخـروج للجهـاد في سبيل الله، ثم إن هذا ليس من شيم القادة أمثال أبي عبيدة رضي الله عنه.

أبوعبيدة ونصارى نجران

قدم وفد من اليمن على النبي ﷺ في المدينة – في السنة التاسعة مـن الهجـرة –[1] وعدتـه سـتون راكبـا، يقـول ابـن إسـحاق «... وقـدم عـلى رسـول الله ﷺ وفـد نـصارى نجـران، سـتون راكبـاً، فـيهم أربعـة عـشر رجلاً من أشرافهم....»[2].

ويبدو أن بعضهم قد أسلم، أو أراد أن يسلم، لـذا طلبـوا مـن النبـي ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم الكتاب والسنة النبوية، أو يقضي بيـنهم فيما اختلفوا فيه، فَعَن حُذَيفَةَ بن اليَمانِ رضي الله عنه قَـالَ: جَـاءَ العَاقِـبُ والـسَيِّدُ

---

(١) نقل ذلك ابن حجر عن ابن سعد (٧/ ٩٤).

(٢) مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٣).

صَاحِبَا نَجرَانَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيدَانِ أنْ يُلاعِنَاهُ. قَالَ: فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ لا تَفعَلْ! فَوَاللهِ لئِنْ كَانَ نَبِيّاً فَلاعَنَنَا لا نُفلِحُ نَحنُ ولا عَقبُنَا مِنْ بَعدِنَا. قَالَا: إنا نُعطِيكَ مَا سَألتَنَا، وَابعَثْ مَعَنَا رَجُلاً أمِيناً، ولا تَبعَثْ مَعَنَا إلا أمِيناً. فَقَالَ «لأبعَثَنَّ مَعَكُم رَجُلاً أمِيناً، حَقَّ أمِينٍ». فَاستَشرَفَ لَهُ أصحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفي رِوَايَةٍ: فَجَثَا لَهَا أصحَابُ النَبِيِّ ﷺ عَلَى الرُكَبِ - فَقَالَ: «قُم يَا أبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ»، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «هَذَا أمِينُ هَذِهِ الأمَّةِ»[1].

وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث «الأمين هو الثقة الرضي، وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره، لكن السياق يشعر بأن له مزيداً في ذلك[2].

كان حب النبي ﷺ لأبي عبيدة يجاوز كل الحدود، فقد روى موسى بن عقبة عن أبي بكر الصديق أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال لأبي عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالهنَّ لي أحب إليَّ من حُمْرِ النَّعَم، قالوا وما هُنَّ يا خليفة رسول الله ؟! قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقام أبو

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٣٢٠، ٢٣٤٤٥)، وفي «فضائل الصحابة» (١٢٧٦)، والبخاري (٦٨٢٧، ٤١٢١)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذي (٣٧٥٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٩٨، ٨١٩٧، ٨١٩٦)، وابن ماجة (١٣٥)، وابن حبان (٦٩٩٩، ٧٠٠٠)، والحاكم (٥١٦٢)، والطيالسي (٤١٢)، وابن أبي شيبة (٣٧٠١٨)، والبيهقي (١٩٩٣٦)، وأبو نُعيم (٧/ ١٧٦)، وابن عساكر (٢٥/ ٤٤٩-٤٥٣)، واللفظ للبخاري، وفي الباب عن أنس وعبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب وغيرهم.

(٢) فتح الباري (٧/ ٩٣).

عبيدة فأتبعه رسول الله ﷺ بَصَرَه، ثم أقبَلَ علينا فقال: إنَّ هنا لكتفين مؤمنتين، وخرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتحدث فسكتنا، فظنَّ أنَّا كنا في شيء كرهنا أن يسمعه، فسكت ساعة لا يتكلم، ثم قال: ما من أصحابي إلا وقد كنت قائلا فيه لابدَّ إلا أبا عبيدة، وقدم علينا وفد نجران فقالوا: يا محمد! ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه، فقال: والذي بعثني بالحق، لأرسلنَّ معكم القوي، قال أبو بكر: فما تعرضتُ للإمارة غيرها، فرفعت رأسي لأريه نفسي؛ فقال: قم يا أباعبيدة؛ فبعثه معهم[1].

وتقديراً لأمانة أبي عبيدة رضي الله عنه، عهد إليه النبي ﷺ بأحد الصحابة لتعليمه وتقويمه، فعن أبي ثعلبه قال: لقيت رسول الله ﷺ؛ فقلت أدفعني إلى رجل حسن التعليم، فدفعني إلى أبي عبيدة، ثم قال: دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك»[2].

وهنا دور آخر يضاف إلى دور أبي عبيدة رضي الله عنه السياسي والعسكري، وهو الدور التربوي، فلولا أنه كان حريا بتلك المهمة التربوية الشاقة ما عهد الرسول ﷺ إليه بتلك المهمتين، أعني تعليم نصارى نجران، وتعليم أحد الصحابة، فقد كان رضي الله عنه نموذجا يُحتذى به بين صحابة رسول الله ﷺ.

---

(١) كنز العمال (١٣/ ٢١٤-٢١٥)

(٢) تهذيب تاريخ دِمشق (٧/ ١٦٣).

أبوعبيدة في الجنة

بشر النبي ﷺ عشرة من أصحابه بالجنة لقاء ما قاموا به من دور عظيم في حمل لواء هذا الدين الحنيف، ومن هؤلاء أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه فعن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمرُ في الجنة، وعثمانُ في الجنة، وعليٌ في الجنة، وطلحةُ في الجنة، والزبيرُ في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعدٌ في الجنة، وسعيدٌ في الجنة، وأبوعبيدة في الجنة»[1].

وفى رواية أخرى عن سعيد بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «عشرة في الجنة....»[2] ثم عدَّ هؤلاء المبشَّرين، ويلاحظ في هذه الأسماء العشرة أن أبا عبيدة هو الوحيد من بينهم الذي لم يكن من قريش البطاح، أي أنه كان من قريش الظواهر، وقد أشرنا في الفصل الأول من الكتاب إلى كل من قريش الظواهر والبطاح.

وقد نَظَم ابن حجر هؤلاء العشرة في بيتين من الشعر، يقول:

لَقدْ بَشَّرَ الهادى من الصَّحْبِ عشرةً ... بجناتِ عدنٍ كُلُّهم قَدْرُه عَلِيْ

عتيقٌ، سعيدٌ، سعدٌ، عثمانُ، طلحةٌ ... زيدُ، ابنُ عوفٍ، عامرٌ، عمرٌ، عَلِيْ

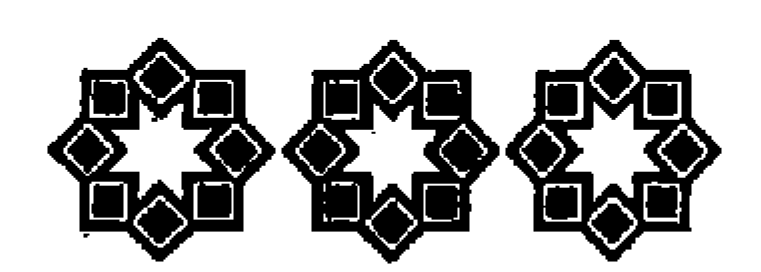
ولعل في تبشير أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بالجنة درساً مهماً ينبغي أن نشير إليه، وهو أنه لم يأخذ هذه البشرى – من النبي ﷺ الذي لا ينطق عن

(١) سنن الترمذى (٥/ ٦٤٧) باب مناقب عبد الرحمن بن عوف.
(٢) المرجع السابق، نفس الموضع.

الهوى – مناطاً للتواكل والقعود عن التكاليف والواجبات التي تمليها تعاليم الدين الإسلامي، فظلَّ في جهاد دؤوب حتى طلب الشهادة في طاعون عَمَوَاس، ولم يفرَّ من الطاعون رغبة في الشهادة، فكتبت له.

ومما يدل على عظم قدره عند النبي ﷺ ذلك الحديث الذي روي عن ابنِ أبِي مُلَيكَةَ قَالَ: سَمِعتُ عَائِشَةَ وسُئِلَتْ: مَنْ كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ مُسْتَخْلِفًا لَوْ اِسْتَخْلَفَهُ؟ قَالَتْ: «أَبُو بَكْرٍ»، فَقِيلَ لَهَا: ثُمَّ مَنْ بَعْد أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَتْ: «عُمَرُ»، ثُمَّ قِيلَ لَهَا: مَنْ بَعْد عُمَرَ؟ قَالَتْ: «أَبُو عُبَيْدَةَ بْن الْجَرَّاحِ»، ثُمَّ اِنْتَهَتْ إِلَى هَذَا[1].

وبعد فليست هذه كل الغزوات والسرايا التي شارك فيها ابن الجراح مع النبي ﷺ، ولكن أوردنا ما حصلنا عليه – قدر المستطاع – من المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الشأن، ولعل جهودا أخرى تثمر عن الوقوف على تفاصيل أكثر من هذا لتعطي هذا الصحابي الجليل حقَّه من الدراسة والتحليل.



---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم والنسائي

الفصل الثالث

من السقيفة إلى الفتوحات

من السقيفة إلى الفتوحات

«ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوهاً، وأحسنها أخلاقاً
وأثبتها جناناً، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذبوك:
أبو بكر وأبو عبيدة وعثمان»[1] عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

لم يتوقف دور أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه السياسي بعد وفاة النبي ﷺ، وإنما ظلَّ هذا الدور ممتداً حتى انتقل إلى رحاب الله عز وجل في طاعون عَمَوَاس في السنة الثامنة عشرة من الهجرة النبوية. وقد أسهم رضي الله عنه يوم السقيفة[2] (١١هـ - ٦٣٢م) في صنع أهم القرارات السياسية في تاريخ الإسلام، حين مات النبي ﷺ ولم يعهد لأحد من أصحابه بالخلافة، وإنما ترك الأمر شورى بينهم، واضعاً بذلك أساساً مهماً من أسس الحكم والخلافة في الإسلام، قبل أن يعرف العالم تلك الأنظمة

---

(١) رواه الطبراني وإسناده حسن وذكره البيهقي في المجمع برقم ١٤٩٣٨.

(٢) سقيفة بني ساعدة: بالمدينة وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها، وبنو ساعدة الذين أضيفت إليهم حي من الأنصار، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج وهم من الأنصار. (معجم البلدان ٥/ ٩٥) بتصرف.

الجوفاء التي لم يجن العالم من ورائها إلا الويلات، تارة باسم الديمقراطية المزعومة، وتارة أخرى باسم النظام العالمي الجديد أو العولمة.

اختلف الصحابة فيما بينهم فيمن يخلف النبي ﷺ، فقام خطيب الأنصار مفتخراً بأنهم قد آووا النبي ﷺ ونصروه وعزروه، حين أخرجه قومه من بعد ما خذلوه وآذوه، ومن ثَمَّ فهم بالخلافة أحقّ، وهم أهلها، وهذا ما عبَّر عنه زعيم الأنصار سعد بن عبادة رضي الله عنه حين خطب في الأنصار قائلاً: «يا معشر الأنصار: إن لكم لسَابقةً في الدين، وفضيلةً في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب.. إن محمداً ﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عباده الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا يعزُّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، فلما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقَادَةَ صاغراً داخراً، وحتى أثْخَنَ -الله عز وجل- لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفَّاه الله وهو عنكم راض، ونام قرير عين، فاستبدوا بهذا الأمر، فإنه لكم دون الناس»[١].

(١) تاريخ العالم الإسلامي ص٩٨.

وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه ممثلاً للمهاجرين فقال «... عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصَّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم. فهم أول من عَبَد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار، من لا يُنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جُلَّةُ أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، ولا تُقضَىَ دونكم الأمور»[1].

وظل الأمر سجالاً بين بين المهاجرين والأنصار حتى أشار الحباب بن المنذر بأن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، فأبى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك، ورد الحباب رضي الله عنه قائلاً: «يا معشر الأنصار: لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أَبَوا عليكم فاجْلُوهم عن البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم -والله- أحق بهذا الأمر منهم».

---

(١) نفس المرجع ص٩٩ بتصرف.

وهنا اشتد الغضب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال للحباب رضي الله عنه: إذن يقتلك الله، فانتزع الحباب رضي الله عنه سيفه، وانتزع عمر رضي الله عنه السيف منه، ولكن جاء دور أبي عبيدة رضي الله عنه الحاسم ليضع الأمور في نصابها، فخطب قائلاً: «يا معشر الأنصار: كنتم أول من نصر وآزر؛ فلا تكونوا أول من بدَّل وغيَّر»[١].

ومما يدل على عظم قدر أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عند الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال له: هَلُمَّ استخلفك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لكل أمة أمينا، وأنت أمين هذه الأمة، فقال أبوعبيدة رضي الله عنه: ما كنت لأقدُمَ رجلاً أمَرَه رسول الله ﷺ أن يؤمَّنَا [٢] وفي رواية أخرى أن أبا بكر رضي الله عنه أخذ بيدي أبي عبيدة رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وقال «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين....»[٣].

ولنستأنس بالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه فليحدثنا عن هذه الوقعة، يقول: قال أبو بكر رضي الله عنه: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قاله غيرها، كان –والله– أن أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي، ولا

(١) المرجع السابق ص١٠١.
(٢) حياة الصحابة (٢/ ١٢) بتصرف.
(٣) انظر أسد الغابة (٣/ ٢٤)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ٦٦).

يُقرِّبني ذلك إلى إثم، أحبّ إليَّ من أن أتأمَّرَ على قومٍ فيهم أبوبكر»[١].

وبعد مشاورات كثيرة، اتفق المجتمعون على تولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه خلافة المسلمين، فإن له لسبقا في الإسلام، فهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، وفيه أنزل الله قرآنا يزكيه إلى يوم القيامة، وقد عهد النبي ﷺ إليه بإمامة المسلمين في الصلاة، حين مَرِضَ مَرَضَ الموت.

وليس أدلَّ على خطورة هذا اليوم وأهميته، من انبهار بعض المستشرقين بما حدث فيه، يقول (ماكدونالد): «إن هذا الاجتماع يُذكِّر إلى حدٍ بعيدٍ بمؤتمرٍ سياسيٍ دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة»[٢].

وهكذا جاء اجتماع سقيفة بني ساعدة نموذجاً فريداً لإرساء واحدة من أهم القواعد التي يرتكز عليها الحكم الرشيد- وهي الشورى - وذلك لما انطوى عليه الاجتماع من تقديرٍ واحترامٍ لعقول الآخرين وآرائهم قبل أن يعرف العالم البرلمانات الحديثة، أو حتى الديمقراطية المزعومة، التي يتشدق بها الغرب ليل نهار.

أبوعبيدة وبيت المال

يرى بعض المؤرخين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حين وليَ خلافة المسلمين، جعل للمسلمين بيت مال، إليه تفيء أموال الفتوحات

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٣).
(٢) تاريخ الدولة العربية ص١٢٠.

وتُوزع على المسلمين، وجعل عليه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

قال خليفة بن خياط: «وكان أبوبكر ولَّى أبا عبيدة بيت المال»[(١)].

وهذا ما أيَّده الإمام السيوطي، حيث ذهب إلى أن أول من اتخذ بيت مال المسلمين هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وردَّ قول العسكري بأن أول من اتخذ بيت مال المسلمين هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد ساق السيوطي ما يؤيد قوله، حيث روى أنه «..... لما بويع أبوبكر أصبح وعلى ساعده أبراد، وهو ذاهب إلى السوق، فقال عمر: أين تريد؟ قال: إلى السوق قال: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال: انطلق يفرض لك أبوعبيدة، فانطلقا إلى أبي عبيدة، فقال: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين، ليس بأفضلهم، ولا بأوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف....»[(٢)].

وروى ابن الأثير أيضاً «..... لما وليَ أبوبكر قال له أبوعبيدة: أنا أكفيك المال، وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء»[(٣)].

وعلى الجانب الآخر نجد أنه بالإضافة إلى العسكري، فإن الذهبي قد أنكر أن يكون أبوعبيدة رضي الله عنه قد ولي بيت مال المسلمين، يقول «....

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥).
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٧٨ بتصرف.
(٣) الكامل (٢/ ٢٨٩).

قال خليفة بن خياط: وكان أبو بكر ولَّى أبا عبيدة بيت المال، قلت يعني: أموال المسلمين، فلم يكن بعد عمل بيت مال، فأول من اتخذه عمر»[(١)].

وظاهر كلام الذهبي يحتمل أيضاً أن يكون أبوعبيدة رضي الله عنه قد ولي توزيع الأموال على المسلمين، ولم يكن بيت المال قد أنشيء وسُمِّي بهذا الاسم، وأيا ما كان الأمر، فقد يكون أبوعبيدة رضي الله عنه قد ولي الأمور المالية، أو وزارة المالية في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه قبل أن يُسمَّى بهذا الاسم أى بيت مال المسلمين.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نورد ما نقله ابن سعد عن قتادة أن «نقش خاتم أبي عبيدة بن الجراح كان: الخمس لله»[(٢)]، وإن صحت هذه الرواية فإنها تدل دلالة قاطعة على أنه تولَّى بيت مال المسلمين واتخذ هذا الخاتم، وفيه إشارة إلى قوله عز وجل ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال: ٤١].

وهنا يجدر بنا التوقف قليلا أمام جانب آخر من جوانب عبقرية ابن الجراح رضي الله عنه، وهو الجانب الاقتصادي، فقد تولى جانبا كبيرا من اقتصاديات الدولة الإسلامية في وقت حرج؛ فلم تكن الدواوين قد عُرفت في ذلك الوقت المبكر من فجر الإسلام.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥).
(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٢)

وعلاوة على إدارته الاقتصادية فقد كان ذا باعٍ في التجارة، وهي المهنة التي كانت مقصورة على علية الناس مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وغيره من الصحابة، وقد ذهبت إحدى الباحثات إلى أن أبا عبيدة رضي الله عنه كان «تاجرا ماهرا، وقد كان من التجار الذين خرجوا بتجارتهم خلال الغزوات، وخاصة أنه كان قائدا عسكريا بصفته أحد التجار؛ لأن التجار في الغالب كانوا يعينون قادة للجيوش بسبب معرفتهم للمواقع والطرقات، ويبدو أنه لم يكن يمتلك السيولة النقدية الضخمة لتمويل تجارته، وتذكر بعض الروايات أنه كانت له أرض بالشام، وكان له عطاء من بيت المال خمسة آلاف درهم لكونه من البدريين»[1].

وبالرغم من عدم قبولنا لبعض الروايات التي اعتمدت عليها الباحثة لكون أبي عبيدة رضي الله عنه قد عاش عيشة زاهدة على النحو الذي بيناه في هذا الكتاب، وهو ما يتنافى مع تعليلاتها، إلا أننا نستدل من ذلك على نشاطاته الاقتصادية المتعددة ولا سيما التجارة.

روايته عن النبي ﷺ

ارتبطت حياة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بالرسول ﷺ منذ أن أسلم، فظل قريباً منه لصيقا به، وقد أحبَّه النبي ﷺ حبًا جمًا، يؤيد ذلك

---

(١) راجع: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية للعشرة المبشرين بالجنة للباحثة أمينة عمر نور ص١٠٩، أطروحة ماجستير في التاريخ ٢٠٠٧م، كلية الدراسات العليا بجامعة النجاح بفلسطين.

ما رواه عبد الله بن شقيق قال: «سألت عائشة: من كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ قالت: أبو بكر، ثم عمر، ثم أبوعبيدة بن الجراح»[١].

وَعَنه أيضا أنَّ عَمرو بنَ العَاصِ رضي الله عنه قال: يَا رَسُولَ اللهَّ، أيُّ النَّاسِ أَحَبُ إليكَ ؟ قال: «عَائِشَةُ» قَالَ: مِنَ الرِجَالِ؟ قال: «أَبُوهَا». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبُو عُبَيْدَةَ بْن الْجَرَّاحِ»[٢].

وقد روى أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه عن النبي ﷺ بعض الأحاديث، يقول الإمام الذهبي «.... روى أحاديث معدودة.... حدث عنه العرباض بن سارية، وجابر بن عبد الله، وأبو أمامة الباهلي، وسمرة بن جندب، وأسلم مولى عمر، وعبد الرحمن بن غنم وآخرون»[٣]، وزاد الحافظ ابن حجر على هؤلاء «أبو ثعلبة الخشني، وعياض بن غطيف، وميسرة بن مسروق، وعبد الله بن سراقة، وقيس بن أبي حازم، وناشرة بنت سمي»[٤]، بينما زاد الحافظ الرازي «وغضيف بن الحارث»[٥].

---

(١) رواه ابن حجر في الإصابة (٢/ ١٢)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ١٠).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة»، وابن حبان وذكر ابن حبان عمر قبل أبي عبيدة، وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من طريق خالد الحذاء عن أبي عثمان عن عمرو بن العاص دون ذكر أبي عبيدة.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٦) بتصرف.

(٤) تهذيب التهذيب (٥/ ٦٦) بتصرف.

(٥) الجرح والتعديل (٦/ ٣٢٥).

وقد أحصى الإمام الذهبي لأبي عبيدة رضي الله عنه سبعة عشر حديثاً، فقال «له في صحيح مسلم حديث واحد، وله في جامع أبي عيسى حديث، وفي مسند بقي له خمسة عشر حديثاً[(١)]

كما أن له اثنا عشر حديثاً في مسند الإمام أحمد، من ذلك ما رواه ابن سراقة عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول «إنه لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أنذر قومه الدجال، وإني أنذركموه، فوصفه لنا رسول الله ﷺ وقال لعله سيدركه بعض من رآني أو سمع كلامي» قالوا يا رسول الله: كيف قلوبنا يومئذ ؟ أمثلها اليوم ؟ قال: أو خير»[(٢)].

أبوعبيدة وجمع القرآن

قال الإمام الذهبي عند ترجمته لأبي عبيدة رضي الله عنه «وكان أبوعبيدة معدودا فيمن جمع القرآن..»[(٣)] وكما يبدو فقد جاء كلام الذهبي مبهما، بحيث لا يدرى معه المقصود من الجمع، الجمع يطلق تارة ويراد حفظه واستظهاره في الصدور، ويُطلق تارة ويُراد كتابته كله حروفًا وكلماتٍ وسورًا[(٤)].

وعلى هدي ذلك فإن قول الذهبي يحتمل وجهين:

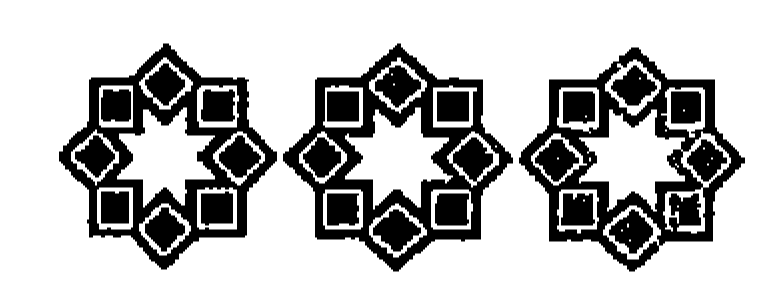
---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٦).
(٢) رواه الإمام الذهبي، انظر المرجع السابق (١، ٦) وقال أخرجه الترمذي.
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٦)
(٤) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ٣٩)، وانظر مباحث في علوم القرآن لمناع قطان ص١١٨.

الوجه الأول: أنه جمعه بمعنى أنه كان رضي الله عنه ممن حفظه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

الوجه الثاني: ويحتمل أنه رضي الله عنه جمعه بمعنى أنه كان ممن كتبه، وهذا أيضاً يستدعي إلمامه بالكتابة، وعلى هذا فيحتمل أنه كان من كتبة الوحي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو أنه كان ممن جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعلى أية حال فإن دلَّ هذا فإنما يدل على أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كان معدوداً بين الصحابة القلائل الذين جمعوا بين العلم والفروسية، وليس أدلَّ على ذلك من إرسال النبي صلى الله عليه وسلم له مع أهل نجران ليعلمهم الكتاب والسنة، وكذلك إسناد النبي صلى الله عليه وسلم له مهمة تعليم أحد أصحابه رضي الله عنه.



الفَصْلُ الرَّابِعُ

أبو عبيدة وفتوحات الشام

أبو عبيدة وفتوحات الشام

«ألا رب مبيض لثيابه، مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ادرأوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء، ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن»[1]

أبو عبيدة رضي الله عنه

ما إن انتهى أبو بكر الصديق رضي الله عنه من محاربة المرتدين الذين ظهروا في شبه الجزيرة العربية، وأظهره الله عليهم، حتى جهَّز جيوشه لفتح بلاد الشام شمال شبه الجزيرة العربية، إيمانا منه بعالمية الدين الإسلامي الذي أراد الله عز وجل له أن يكون خاتمًا لما سبقه من الرسالات.

وقد قسَّم أبو بكر الجيش إلى أربعة أقسام، وعيَّن على كل قسم أميراً في الرابع من شهر ربيع الثاني في عام ١٢هـ الموافق للثامن عشر من

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٨)، الإصابة (٢/ ١٢)، حلية الأولياء (١/ ١٠٢)، وانظر لواقح الأنوار (١/ ١٩).

يونيو ٦٣٣م[١]، وأمَرَهم أبوبكر الصديق ﷺ أن يدخلوا الشام من جهات متفرقة، مقتديًا بنبي الله يعقوب عليه السلام حين قال لبنيه ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧] وقد أراد الصديق أن تكون هذه المرحلة لجسِّ النبض قبل الخوض في الفتوحات.

وفي الرابع والعشرين من رجب سنة ١٢هـ الموافق للرابع من أكتوبر سنة ٦٣٣م خرج يزيد بن أبي سفيان ﷺ متوجهاً إلى دِمشق، وقصد شرحبيل بن حسنة ﷺ أرض الأردن فخرج في السابع والعشرين من رجب ١٢هـ الموافق للسابع من أكتوبر ٦٣٣م، وقاد أبوعبيدة ﷺ جيشه قاصداً حمص في السابع من شهر شعبان ١٢هـ الموافق للسابع عشر من أكتوبر ٦٣٣م، وتوجَّه عمرو بن العاص ﷺ إلى فلسطين.

يقول ابن كثير عن إرسال أبي بكر ﷺ لأبي عبيدة ﷺ «وبعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر، وخرج معه ماشياً يوصيه، وجعل له نيابة حمص»[٢].

وتذكر بعض الروايات أن أبا بكر قال له وقتئذ «إني أحب أن تعلم

(١) انظر «أطلس تاريخ الإسلام» للدكتور حسين مؤنس ص١٢٦.
(٢) البداية والنهاية (٤/٦).

كرامتك عليّ ومنزلتك مني، والذي نفسي بيده ما على الأرض رجل من المهاجرين ولا غيرهم أعدله بك، ولا هذا – يعني عمر – وله من المنزلة عندي إلا دون مالك»[١].

ويقول البلاذري «وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل»[٢] كما نقل البلاذرى عن أبي مخنف «أن أبا بكر قال للأمراء: إن اجتمعتم على قتال فأميركم أبوعبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح الفِهْري، وإلا فيزيد بن أبي سفيان»[٣] ويحتمل أن يكون أبوبكر رضي الله عنه قد قال هذه المقولة لقادة الجيوش قبل أن يتوجهوا إلى الشام، كما يحتمل أنه قال ذلك حين أرسل القادة إليه يستمدونه، بعد أن حشد الروم حشودهم في مواجهتهم. ويبدو أن القادة تجمَّعوا بالشام، وتشاوروا فيما بينهم، ثم بدا لهم من بعد التراثي أن تجتمع الجيوش الأربعة تحت لواء واحد، حتى يلتقوا الروم مجتمعين لا متفرقين، وقد أفزع الروم أيضاً ما كان من جمع المسلمين لغزوهم؛ فكتبوا إلى هرقل الذي نصحهم بأن يصالحوهم على نصف خراج الشام؛ لأنهم أهل دين جديد، ولا قبل لأحد بهم، بيد أن الروم أَبَوا أن يحاربوا المسلمين ليردُّوهم.

---

(١) كنز العمال (١٣/ ٢١٤).
(٢) فتوح البلدان للبلاذري/ ١١٦.
(٣) المرجع السابق.

ويروي ابن كثير أن الأمراء كتبوا إلى أبي بكر رضي الله عنه، فكتب إليهم «اجتمعوا وكونوا جندا واحدا، والقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يُؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها»[1].

بدء الفتح (يوم العربة والداثن)

سار أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه على باب من البَلْقاء، فقاتله أهله ثم صالحوه، فكان أول صلح في الشام، واجتمع للروم جمع بالعربة من أرض فلسطين؛ فوجَّه إليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أمامة الباهلي فهزمهم، فكان أول قتال بالشام بعد سرية أسامة بن زيد، ثم أتوا الدَّاثِن فهزمهم أبو أمامة أيضاً[2].

ولنترك أبا أمامة الباهلي ليحدثنا عن ذلك اليوم، يقول: «كنت ممن سرَّح أبو بكر رضي الله عنه مع أبي عبيدة رضي الله عنه في نفر من قومي، فأوصاني به وأوصاه بي؛ قائد خمسمائة رجل، فكانوا ثلاثة آلاف رجل. فأقبلوا حتى انتهوا إلى العربة، فبعث يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٩)، والبلقاء: كورة من أعمال دِمشق بين الشام ووادى القرى، انظر معجم البلدان (٢/ ٢٧٦)، والعربة: وردت في البداية والنهاية بالياء، وهي موضع في أرض فلسطين، معجم البلدان (٦/ ١٣٨) والداثن: ناحية قرب غزة بأعمال فلسطين بالشام، معجم البلدان (٤/ ٤).

(٢) الكامل (٢/ ٢٧٧) (بتصرف).

يُعْلِمه ذلك، فبعثني إليه في خمسمائة رجل، فلما أتيته بعث معي رجلاً في خمسمائة رجل، وقتلنا قائداً من قوادهم، ثم مضوا واتبعناهم، فجمعوا لنا بالداثنه، فسرنا إليهم، فقدمني يزيد وصاحبي في عدتنا فهزمناهم، فعند ذلك فزعوا واجتمعوا وأمدّهم ملكهم.

مرج الصفّر

ثم كان بعد ذلك يوم مَرْج الصُّفَّر[1] واستشهد فيه جماعة من المسلمين، منهم خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، وقيل: بل ابن لخالد بن سعيد رضي الله عنه، وجرح يومئذ من المسلمين زهاء أربعة آلاف[2].

فتح بصرى

أراد هرقل ملك الروم أن يشغل جيش المسلمين ويفرِّق شَملهم، فأرسل إليهم الجنود متفرقين، فلما علم أبو بكر رضي الله عنه بهذا كتب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه يأمره أن يترك العراق ويتوجه إلى الشام مدداً للمسلمين هناك، وجعله أميراً عليهم، وكتب إليه يقول: «انصرف بثلاثة آلاف فارس، فأَمِدَ إخوانك بالشام، والعَجَل العَجَل» فانطلق خالد فالتقي بجيش المسلمين عند بُصْرى[3]، فلم يجد أهل بُصْرَى بداً

---

(١) فتوح البلدان/ ١٢١.

(٢) انظر فتوح البلدان/ ١٢٥.

(٣) بُصْرَى: من أعمال دِمشق، معجم البلدان (٢/ ٢٨٠).

من المصالحة مع المسلمين على الجزية، وبذلك تكون بُصْرَى أول مدائن الشام التي فتحت في خلافة الصديق رضي الله عنه وكان هذا الصلح في ٢٥ ربيع أول سنة ١٣ هـ [١].

يوم أجنادين

واختلف المؤرخون في تاريخ يوم أَجْنَادِين [٢] فذهب ابن كثير إلى أنها من أحداث سنة ١٥ هـ [٣]، بينما ذكر البلاذري أنها كانت سنة ١٤ هـ، وتبعه في ذلك ابن الأثير [٤] واستشهد في هذه المعركة أيضاً رجال من المسلمين، وقيل قتل فيها عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه، وعبد الله بن الطفيل الدوسي رضي الله عنه الملقب بذي النور.

معركة اليرموك

واختلفوا أيضاً في التأريخ لهذا اليوم، فذهب البلاذري إلى أنه كان في سنة ١٥ هـ، بينما ذهب ابن الأثير، وتبعه ابن كثير إلى أنه كان في سنة ١٣ هـ.

ولنترك البلاذري ليحدثنا عن هذا اليوم، يقول «... وكان المسلمون يومئذ أربعة وعشرين ألفاً، وتسلسلت الروم وأتباعهم لئلا يُطمعوا أنفسهم في الهرب، فقتل الله منهم زهاء سبعين ألفاً... وقاتل

---

(١) انظر: تاريخ دِمِشق (٢/ ٨١)، وأطلس تاريخ الإسلام صـ١٢٦.
(٢) أَجْنَادِين: موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، معجم البلدان (١/ ١٢٦).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ٧٣).
(٤) الكامل (٢/ ٢٨٧) وهذا رأي ابن إسحاق، انظر البداية والنهاية (٤/ ٤٣).

يوم اليرموك[١] نساء المسلمين قتالاً شديداً...»[٢].

وإذا استأنسنا بابن الأثير نجده يقول «وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مُقيَّد، وأربعون ألف مُسلسل للموت... وقيل: كانوا مائة ألف»[٣].

وقبل أن تبدأ المعركة قام خالد بن الوليد رضي الله عنه.. قائد الجيش يومئذ - يعظ المسلمين ويحرضهم على القتال، وقسَّم الجيش إلى كراديس (قطع الخيل العظيمة)، وجعل أبا عبيدة رضي الله عنه على القلب، وعمرو بن العاص رضي الله عنه وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنه على الميمنة، ثم أقام يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه على الميسرة.

وكدأبه في وقت الشدائد والملمات، أخذ أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يعمل على تعبئة الجنود، والرفع من روحهم المعنوية، فقامَ خطيباً، فقال:

عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، ويا معشر المسلمين، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومَدحَضَة للعار، ولا تبرَحوا مَصَافَّكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدأوهم بالقتال، واشْرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت

---

(١) وادٍ بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن، معجم البلدان (٨/ ٥٠٤).
(٢) فتوح البلدان / ١٤١ (بتصرف).
(٣) الكامل (٢/ ٢٨١).

إلا من ذكر الله[١].

وبينما المسلمون على هذه الحال إذ جاء البريد إلى خالد بن الوليد ﷺ يحمل إليه نبأ وفاة أبي بكر الصديق ﷺ وتولية عمر بن الخطاب ﷺ وإسناده إمارة الجيش لأبي عبيدة ﷺ بدلاً منه، فأسرَّها خالد ﷺ في نفسه، ولم يُبدها لأحدٍ حتى لا يستشري الضعف في صفوف المسلمين ويضطربوا.

وبعد انتهاء المعركة وإظهار الله المسلمين على الروم جمع خالد ﷺ الجنود، وقال لهم وُلِّي عليكم أمين هذه الأمة، وقال أبو عبيدة ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن خالداً لسيف من سيوف الله»[٢].

وتذكر الرواية التاريخية أن عمر بن الخطاب ﷺ قام فرقي المنبر خطيبا، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الرسول ﷺ، فصلَّى عليه وترحَّم على أبي بكر الصديق ﷺ ثم قال:

«أيها الناس إني حُمِّلت أمانة عظيمة، وإني راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته، وقد جئت لإصلاحكم، والنظر في معايشكم، وما يقربكم إلى ربكم أنتم، ومن حضر في هذا البلد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «من صبر على أذاها وشرها؛ كنت له شفيعًا يوم القيامة» وبلادكم بلاد

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٣).
(٢) أسد الغابة (٣/ ٢٤).

لا زرع فيها ولا ضرع، ولا ماء أوقر به الإبل لآمن مسيرة شهر، وقد وعدنا الله مغانم كثيرة، وإني أريدها للخاصة والعامة لأؤدي الأمانة والتوقير للمسلمين... وما كرهت ولاية خالد على المسلمين إلا لأن خالدا فيه تبذير المال يعطي الشاعر إذا مدحه، ويعطي للمجد والفارس بين يديه فوق ما يستحقه من حقه، ولا يُبقي لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئًا، وإنِّي أريد عَزْله وولاية أبي عبيدة مكانه، والله يعلم إني ما وليتُه إلا أمينا؛ فلا يقول قائلكم: عَزَلَ الرجل الشديد ووَلَّىَ الأمين اللين للمسلمين، فإن الله معه يسدّده ويعينه، ثم نزل عن المنبر، وأخذ جلد أدم منشور، وكتب إلى أبي عبيدة، وطوى الكتاب وختمه بخاتمة، ثم دعا بعامر بن أبي وقاص أخي سعد، ودفع الكتاب إليه، وقال له انطلق إلى دِمشق، وسلِّم كتابي هذا إلى أبي عبيدة، وامره أن يجمع الناس إليه، واقرأه أنت على الناس يا عامر، وأخبره بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم دعا عمر رضي الله عنه شداد بن أوس فصافحه، وقال له امض أنت وعامر إلى الشام، فإذا قرأ أبوعبيدة الكتاب؛ فامر الناس يبايعونك لتكون بيعتك بيعتي..»[1].

وقد صاغ الشاعر حافظ إبراهيم هذا الموقف في قصيدته العُمَرية الرائعة، يقول رحمه الله :

---

(١) فتوح الشام صـ٩٦ وما بعدها (بتصرف).

سَلْ قَاهرَ الفرسِ والرومِ هل شفعتْ ... لـه الفتوحُ وهل أغنَـي تَواليهـا؟!

أتـاه أمرُ أبـي حفـصٍ فقبَّلـه ... كمـا يُقبَّـلُ آيَ الله تاليهـا

أَلَقَـى القِيـادَ إلى الجـراحِ مُمتثلاً ... وعـزةُ الـنفسِ لم تجرحْ حواشيها

وانضمَ للجيشِ يمشي تحْتَ رايتهِ ... وبالحيـاةِ إذا مالـت يفدِّيهـا

فخالـدُ كـان يـدري أن صَـاَحبَه ... قـد وجَّـه الـنَّفسَ نحـو الله تَوجيهـا

وقيـل: خَالَفْـتَ يـا فـاروقُ صَـاحِبنَا ... فيه وقَدْ كَانَ أعْطَي القـوسَ بَاريها

فقـال: خِفْـتُ افتتـانَ المسلمين بـه ... وفتنةُ الـنَّفْسِ أَعْيَـتْ مـن يُداوِيهـا

أما عن نص الرسالة فقد روتها لنا بعض المصادر يقول ابن الخطاب رضي الله عنه:

أما بعد،،

أوصيك بتقوي الله عز وجل الذي يبقَى ويَفنَى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتُكَ على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تُقدِّم المسلمين إلى هَلَكَةٍ رجاءَ غنيمة، ولا تُنزلهم منزلًا قبل أن تَستَريدَه لهم، وتَعلَمَ كيفَ مَأتَاه.

ولا تبعث سرِيةً إلا في كَثَفٍ من الناس، وإياك وإلقاءِ المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بي، وأبلاني بك، فغمِّض بَصَرَكَ عن الدنيا، والْهُ قلبك عنها، وإياك أن تُهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت

مَصَارِعَهم. وخَبرتَ سرائرَهم، وإنّما بينك وبين الآخرة ستر الخمار، وقد تقدم فيها سلفك، وأنت كأنك منتظر سفرا ورحيلا من دار قد مضت نضرتها، وهبت زهرتها، فأحزم الناس فيها الراحل منها إلى غيرها ويكون زاده التقوى، وراع المسلمين ما استطعت، وما الحنطة والشعير الذي وجدتَ بدمشق، وكثرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين، وأما الذهب والفضة ففيهما الخُمُسُ والسِّهام، وأمَّا اختصامُك أنت وخالد في الصلح أو القتال فأنت الولي وصاحب الأمر، وإن صُلحك جرى على الحقيقة أنها للروم فسلِّم إليهم ذلك، والسلام ورحمة الله عليكم وعلى جميع المسلمين، وأما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها إلى أبيها بعد أسرها تفريط، وقد كان يأخذ في فديتها مالًا كثيرا يرجع به على الضعفاء من المسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١)

وبطبيعة الحال، امتثل الناس لأمر الخليفة طائعين، بيد أن البعض قد تكلَّم وكأنه كان يُفضِّل خالد بن الوليد على أبي عبيدة رضي الله عنهما فقد رُوي أن مُعَاذ بن جَبلٍ رضي الله عنه لَّما بَلَغَهُ أنَّ بَعضَ أهلَ الشَامِ استَعجَزَ أبا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه أيامَ حِصَارِ دِمشق، وَرَجَّحَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ رضي الله عنه، غَضِبَ، وَقَالَ: «فإلى أبي عُبَيْدَةَ تَضطَرُّ المُعجِزَةُ

---

(١) راجع حياة الصحابة (٢/ ١٠٩-١١٠)، فتوح الشام ص٩٦-٩٧ بتصرف.

لا أبَا لكَ.. للهِ واللهِ إنَّهُ لِمَنْ خَيرِ مَنْ عَلى الأرضِ»[(١)].

فتح دمشق

عزم أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه على فتح دِمِشق بعد أن فتح اليرموك، بيد أنه علم أن الروم قد تجمع كثير منهم بفحل، فحار في الأمر، وهو لا يدرى أبدمشق، أم بفحل يبدأ، فكتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب الذي قال له: ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، فبعث أبوعبيدة إلى فِحْل طائفة من المسلمين.

يقول ابن كثير «ثم سار أبوعبيدة من مَرْج الصُّفَّر قاصداً دِمِشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب، وركب أبوعبيدة وعمرو بن العاص في المجنبتين، وعلى الخيل عياض بن غنم»[(٢)]، وظل المسلمون يحاصرون دِمِشق لمدة اختلف المؤرخون في تقديرها، ما بين سبعين يوماً، وأربعة أشهر، وستة أشهر، ومنهم من قال: أربعة عشر شهراً[(٣)].

وقد حدث في أثناء هذه المدة أن وُلد للبطريق الذي على دِمِشق مولود، فصنع لهم الولائم والشراب، فأكلوا وشربوا وتركوا أماكنهم، ففاجأهم خالد بن الوليد وبعض الصحابة بعد أن تسلَّقوا السور العظيم

---

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٣/ ٤١٤)، والبخاري في «تاريخه الصغير» (٢١٧)، وحسّن الحافظ إسناده في «الإصابة» (٢/ ٢٤٤).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٧).

(٣) نفس المرجع (٤/ ٢٨) بتصرف.

بحبال جعلوها كهيئة السلاليم.

وقد اختلف المؤرخون فيما إذا كان فتح دِمشق عن طريق القتال أم عن طريق الصلح، أم إن الصلح جاء بعد القتال، والأخير هو الأرجح، كما اختلفوا في أمير المسلمين في هذا الفتح، فذهب بعضهم إلى أنه خالد بن الوليد رضي الله عنه، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وهذا ما نرجحه، لاطمئناننا إلى ما رواه البلاذري» وولي أبو عبيدة رضي الله عنه وقد فتح هذا كله، فكان أمير الناس حين فتحت دِمشق، إلا أن الصلح كان لخالد، وأجاز صلحه[1].

وقد أعجب كثير من مؤرخي الغرب بأخلاق أبي عبيدة رضي الله عنه ومروءته التي لا تقارن، يقول أحدهم «لو كانت هذه أوصاف هذا الصحابي الجليل الذي كان أمير الجيش الإسلامي في ذلك العصر مجتمعة في أمراء جيوش الأعصر الجديدة المشهورة بالتمدن والتقدم لأفادتهم غاية المجد والشرف، ونفت عنهم مثالب الجور، فأجلُّ أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن في عهدنا لم تبلغ درجة ذلك الأمير الخطير، الذي هو بين الفاتحين عديم النظير، فكل منقبة من مناقب عدله وحلمه ووفائه، تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة، وتزدرى بأمرائه..»[2].

---

(١) فتوح البلدان/ ١٣٣.

(٢) دائرة المعارف للبستاني (٢/ ٢٤٤-٢٤٥).

وقد اختلف المؤرخون أيضاً في تحديد العالم الذي فُتحت فيه دِمشق، فذهب ابن كثير إلى أن الفتح كان في السنة الثالثة عشر للهجرة[١]، وكتب خالد بن الوليد ﷺ الصلح معهم في ربيع الآخر من السنة الخامسة عشر للهجرة.

يوم فِحل

ذكر بعض علماء السير، ومنهم البلاذرى، أن يوم فِحْل[٢] كان قبل فتح دِمشق، بيد أن الأرجح ما ذهب إليه كل من ابن جرير، وابن الأثير، وابن كثير أنه كان بعد فتح دِمشق فقد جمع المسلمون جمعهم بعد فتح دِمشق واتجهوا نحو فِحْل، يقول ابن كثير «.. وسار أبوعبيدة وقد جعل على المقدمة خالد بن الوليد، وأبوعبيدة على الميمنة، وعمرو بن العاص على الميسرة، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجالة عياض بن غنم، فوصلوا إلى فِحْل – وهى بلدة بالغور – وقد انحاز الروم إلى بَيْسَان، وأرسلوا مياه تلك الأراضي على ما هنالك من الأراضي»[٣].

أراد الروم أخذ المسلمين على غرة، فهاجموهم بالليل، واشتدت المعركة بينهم، فقاتلوهم حتى الصباح، واليوم التالي إلى الليل، وقتل أميرهم سقلاب، وأظهر الله ﷻ جنده فقتل من الروم ما يقارب الثمانين ألف.

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٤٣).

(٢) فِحْل: موضع بالشام، معجم البلدان (٦/ ٣٤٠).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٥).

وذهب البلاذري إلى أن «سبب هذه الوقعة أن هرقل لما صار إلى أنطاكية[١] استنفر الروم وأهل الجزيرة.. فلقوا المسلمين بفحل من الأردن؛ فقاتلوهم أشد قتال وأبرحه، حتى أظهرهم الله عليهم، وقتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه»[٢].

والراجح أن فتح فِحْل قد انتهى بالصلح، يقول البلاذري «وتحصَّن أهل فِحْل فحصرهم المسلمون حتى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمَّنوهم على أنفسهم وأموالهم، وألا تُهدم حيطانهم، وتولَّى عقد ذلك أبوعبيدة بن الجراح، ويقال: تولَّاه شرحبيل بن حسنة»[٣].

فتح حمص وبعلبك وحماة[٤]

ما إن استقر الأمر بالمسلمين الفاتحين في دِمِشق بعد أن مَنَّ الله عليهم بفتحها حتى ساروا بقيادة أبي عبيدة ﵁ قاصدين حمص، فمروا ببعلبك، فطلب أهلها الأمان والصلح؛ فصالحوهم، وأمَّنوهم على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وكتب لهم:

---

(١) أَنْطَاكِيَة: ناحية بالشام.
(٢) فتوح البلدان/ ١٢٢.
(٣) المرجع السابق.
(٤) حِمْص: بلد مشهور قديم، وهي بين دِمِشق وحلب، معجم البلدان (٣/ ٣٣٩)، وبَعْلَبَك: مدينة قديمة بينها وبين دِمِشق ثلاثة أيام، معجم البلدان (٢/ ٢٢٦) وحَمَاة: مدينة كبيرة عظيمة الخيرات يحيط بها سور محكم، معجم البلدان (٣/ ٣٣٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب أمان لفلان بن فلان، وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، ودورهم، وداخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيدا»[١]

ثم توجَّهوا تلقاء حمص، فحاصروها حصاراً شديداً، حتى كاد البرد ينخر عظامهم، وظلَّوا على هذا الحال كثيراً، حتى يئس أهل حمص من وصول أية إمدادات من هرقل، وكان قد وعَدَهَم من قبل بمساعدتهم، فنزَلوا أيضاً على الصلح، واستخلف عليهم عبادة بن الصامت الأنصاري، «ومضى نحو حماة فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية في رؤوسهم، والخراج في أرضهم»[٢] وكان ذلك في السنة الرابعة عشر من الهجرة[٣].

---

(١) فتوح البلدان ص١٣٦.
(٢) نفس المرجع ص١٣٧.
(٣) تهذيب تاريخ دِمِشق الكبير (٧/ ١٦٤).

فتح بيسان

ويبدو أن أبا عبيدة رضي الله عنه قد بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنه لفتح بَيْسَان[1]، وذلك بعد انصراف أبي عبيدة رضي الله عنه وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى حمص، يقول ابن الأثير «ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، نزل عمرو وشرحبيل على أهل بَيْسَان، ففتحاها وصالحا أهل الأردن»[2].

فتح قِنسرين وحلب وأنطاكية[3]

بعدما فتح أبو عبيدة رضي الله عنه حمص وبعلبك، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قِنَّسرين، فقاتلهم قتالا شديداً وقتل أميرهم «ميناس» وقد تحصّن الروم؛ فقال لهم خالد رضي الله عنه قولته المشهورة: «إنكم لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا الله إليكم، أو لأنزلكم إلينا»[4]، «فلمّا بلغ عمر ما صنعه خالد في هذه الوقعة، قال: يرحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال مني، والله إني لم أعزله عن ريبة، ولكن خشيت أن يُوكل الناسُ إليه»[5].

وقد اتفق كل من ابن الأثير وابن كثير[6] على أن فتح قِنَّسرين كان

---

(١) بَيْسَان: مدينة بالأردن، بالغور الشامي وهي بين حوران وفلسطين، معجم البلدان (٢/ ٣٣١).
(٢) الكامل (٢/ ٣٤٣).
(٣) قِنَّسرين: كورة بالشام، معجم البلدان (٧/ ١٦٨)، حلب: مدينة بسوريا.
(٤) الكامل (٢/ ٣٤٣).
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٧١).
(٦) انظر: الكامل (٢/ ٣٤٣) وما بعدها، والبداية والنهاية (٤/ ٧١) وما بعدها.

في السنة الخامسة عشر للهجرة النبوية المباركة.

ولما فرغ أبوعبيدة رضي الله عنه من فتح قِنَّسرين، اتجه صوب حلب، فصالحوه على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك، وسار من حلب إلى أنطاكية، ودار بينهما قتال، ونزلوا على الصلح. ويبدو أن أنطاكية كان لها قدر كبير آنذاك، يقول ابن الأثير «وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين، فلما فُتحت، كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء»[١].

فتح بيت المقدس (إيلياء)

دخل أبوعبيدة رضي الله عنه إلى دمشق فمكث بها شهرًا، ثم جمع أمراء المسلمين وطلب منهم المشورة، فأشار البعض عليه بالتوجه إلى قيسارية، وأشار البعض الآخر بـ(إيلياء) [٢]، فقال: فما الذي ترون منهما؟! فقالوا: أنت الرجل الأمين؛ وما تسير إلى موضع إلا ونحن معك؛ فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فحيث أمرك فسر واستعن بالله؛ فقال: أصبت الرأي يا معاذ؛ فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فاستشار أصحابه؛ فأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ببيت المقدس، فكتب إلى أبي عبيدة:

---

(١) الكامل (٢/ ٣٤٥) وانظر: فتوح البلدان ص١٥٣.

(٢) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، معجم البلدان (١/ ٢٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة:

أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه، وقد ورد عليَّ كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه إليها، وقد أشار ابن عم رسول الله ﷺ بالسير إلى بيت المقدس، فإن الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك، والسلام عليك.

وصلت رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ إلى أبي عبيدة ؓ فقرأها على المسلمين؛ ففرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس، فدعا أبوعبيدة بخالد بن الوليد ؓ؛ وعقد له راية؛ وضمَّ إليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف؛ وسرَّحه إلى بيت المقدس؛ ثم دعا بيزيد بن أبي سفيان ؓ وعقد له راية على خمسة آلاف، وأمره أن يلحق بخالد إلى بيت المقدس، وقال له: يا ابن أبي سفيان ما علمتك إلا ناصحًا، فإذا أشرفت على بلد إيلياء فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير، واسألوا الله أن يسهِّل فتحها على أيدي المسلمين.

ثم دعا أبوعبيدة ؓ كلا من شرحبيل بن حسنة، والمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، والمسيب بن نجية الفزاري، وقيس بن هبيرة المرادي، وعروة بن مهلهل بن زيد الخيل ؓ فعقد لكل منهم لواء

على خمسة آلاف جندي، فكان عدد الجنود خمسة وثلاثين ألفًا، وسارت الألوية السبعة في سبعة أيام، في كل يوم أمير.

فكان أول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد ﷺ؛ فلما أشرف عليهم كبَّر وكبَّر أصحابه؛ فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا؛ وتزعزعت قلوبهم؛ وصعدوا على أسوار بلدهم؛ فلما نظروا إلى قلة المسلمين استحقروهم؛ وظنوا أن ذلك جميع المسلمين؛ فنزل خالد ومن معه مما يلي باب أريحاء؛ بقية الجيش في كل يوم راية حتى تجمعوا على أطرافها.

فلما كان اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة ﷺ يحملها غلامه سالم، ومن ورائها فرسان المسلمين وأبطال الموحدين وقد أحدقوا بأبي عبيدة؛ ففزع الروم لهذا، وما هي إلا لحظات حتى جاء رسل البطريرك إليه مهرولين، وقالوا: يا أبانا قد قدم أمير القوم إلينا، ومعه بقية المسلمين، فلما سمع البطريرك بذلك تغيَّر لونه، وقال: هي هي؛ قالوا: ما ذلك يا أبانا؟!

قال: وحق الإنجيل إن كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام.

قالوا: وكيف ذلك؟!

قال: لأنا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين أن الذي يفتح الأرض في الطول والعرض هو الرجل الأسمر الأحور المسمى بعمر،

صاحب نبيهم محمد، فإن كان قد قدم فلا سبيل لقتاله، ولا طاقة لكم بنواله، ولا بد لي أن أشرف عليه، وأنظر إليه وإلى صورته، فإن كان إياه عمدت إلى مصالحته وأجبته إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا نسلم إليه قط؛ لأن مدينتنا لا تفتح إلا على يد من ذكرته لكم والسلام.

كان جنود المسلمين يحاصرون المدينة إذ ناداهم رجل ممن كان يمشي بين يدي البطريرك؛ فقال: يا معاشر المسلمين: كفوا عن القتال حتى نستخبركم ونسألكم؛ فأمسك الناس عن القتال؛ فنادهم رجل من الروم بلسان عربي فصيح: اعلموا أن صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا، فإن كان هو أميركم فلا نقاتلكم؛ بل نسلم إليكم؛ وإن لم يكن إياه فلا نسلم إليكم أبدًا؛ فلما سمع المسلمون ذلك أقبل نفر منهم إلى أبي عبيدة ﷺ وحدثه بما سمعوه.

فخرج أبو عبيدة ﷺ إليهم؛ فنظر البطريرك إليه وقال: ليس هو هذا الرجل؛ فأبشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحريمكم، وأقبلوا يقاتلون القتال الشديد.

ثم بدى للبطريرك أن يتفاوض مع أبي عبيدة ﷺ لعله يثني المسلمين عن عزمهم، فالتقى بأبي عبيدة ﷺ ودار حوار طويل:

البطريرك: ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة؛ ألا تعلمون أن من قصدها يوشك أن يغضب الله عليه ويهلكه؟!

أبو عبيدة: نعم إنها شريفة، ومنها أُسري بنبينا إلى السماء، ودنا من ربه كقاب قوسين أو أدنى، وأنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها، ونحن أحق منكم بها، ولا نزال عليها أو يملّكنا الله إياها كما ملكنا غيرها.

البطريرك: فما الذي تريدون منا؟!

أبو عبيدة: خصلة من ثلاث: أولها أن تقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ فإن أجبتم إلى هذه الكلمة كان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.

البطريرك: إنها كلمة عظيمة، ونحن قائلوها إلا أن نبيكم محمدًا ما نقول إنه رسول.

أبو عبيدة: كذبت يا عدو الله إنك لم توحِّد قط، وقد أخبرنا الله في كتابه أنكم تقولون المسيح ابن الله: لا إله إلا الله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

البطريرك: هذه خصلة لا نجيبكم إليها فما الخصلة الثانية.

أبو عبيدة: تصالحوننا عن بلدكم، أو تؤدون الجزية إلينا.

البطريرك: هذه الخصلة أعظم علينا من الأولى، وما كنا بالذي يدخل تحت الذل والصغار أبدًا.

أبو عبيدة: إذا نقاتلكم حتى يظفرنا الله.

البطريرك: فإنا لا نسلم مدينتنا أو نهلك عن آخرنا، وكيف نسلمها وقد

استعددنا بآلة الحرب والحصار وفيها العدة الحسنة والرجال الشداد؟! ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية، فإنهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم، ونحن في بلد من إذا سأل المسيح ودعاه أجاب دعوته.

أبو عبيدة: كذبت والله يا عدو الله ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ﴾[المائدة: ٧٥].

البطريرك: أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبدًا؛ وإنما تُفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا، ولسنا نجد صفته ونعته معك أبدًا.

أبو عبيدة: وما صفة من يفتح مدينتكم؟!

البطريرك: لا نخبركم بصفته، لكن نجد في كتبنا، وما قرأناه أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد، اسمه عمر يعرف بالفاروق، وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم، ولسنا نرى صفته فيكم.

فتبسم أبو عبيدة ضاحكًا، وقال: فتحنا البلد ورب الكعبة.ثم أقبل عليه وقال له: إذا رأيت الرجل تعرفه؟!

البطريرك: نعم؛ وكيف لا أعرفه وصفته عندي وعدد سنينه وأيامه.

أبو عبيدة: هو والله خليفتنا وصاحب نبينا.

البطريك: إن كان الأمر كما ذكرت فقد علمت صدق قولنا؛ فاحقن الدماء، وابعث إلى صاحبك يأتي؛ فإذا رأيناه وتبيناه؛ وعرفنا صفته ونعته؛ فتحنا له البلد من غير همٍّ ولا نكد، وأعطينا الجزية.

أبو عبيدة: فإني مرسل إليه فناظر ما يفعل.

وأمر أبو عبيدة رضي الله عنه بوقف القتال حتى ينظر في الأمر، وكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابًا يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة عامر بن الجراح.

أما بعد السلام عليك،،

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ؛ واعلم يا أمير المؤمنين أنا منازلون لأهل مدينة إيلياء نقاتلهم أربعة أشهر، كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا، ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار، إلا أنهم صابرون على ذلك، ويرجون الله ربهم، فلما كان اليوم الذي كتبت إليك الكتاب فيه، أشرف علينا بتركهم (يعني البطريك) الذي يعظمونه، وقال: إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر، وأنه يعرف صفته ونعته، وهو عندهم في كتبهم، وقد سألنا حقن الدماء، فسر إلينا بنفسك، وانجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك.

وصلت رسالة أبي عبيدة ﷺ إلى عمر ﷺ فحار فيها؛ فأرسل في طلب أصحابه؛ فأشار عليه عثمان بن عفان ﷺ بالبقاء؛ بينما أشار عليه علي بن أبي طالب ﷺ بالخروج إلى بيت المقدس حتى يتم فتحه للمسلمين؛ فنزل أبوعبيدة ﷺ على رأي علي ﷺ وشدَّ رحاله إلى مسرى رسول الله ﷺ.

ما إن وصل عمر ﷺ إلى بيت المقدس حتى استقبله أبوعبيدة ﷺ في حفاوة بالغة تليق به كخليفة للمسلمين، حتى إن بين أيدينا بعض الروايات التي تصور هذه الحفاوة المتبادلة بين الطرفين، ولا غرو في ذلك، فكلاهما تربى في مدرسة رسول الله ﷺ، تقول الرواية: «...فأشار أبوعبيدة ليُقبِّل يَدَ عمر، فهمَّ عمر بتقبيل رِجلِ أبي عبيدة، فكفَّ أبوعبيدة، فكفَّ عمر»[1].. فأي رجل هذا الذي يقبِّل عمر بن الخطاب ﷺ رِجْلَه؟! وقد عاش ابن الخطاب ﷺ مُهابًا في جاهليته وبعد إسلامه.

حانت صلاة الصبح فنزل عمر ﷺ فصلى بالمسلمين، ثم خطبهم خطبة ذرفت لها العيون قال فيها:

«الحمد لله الحميد المجيد، القوي الشديد، الفعال لما يريد، ثم قال: إن الله تعالى قد أكرمنا بالإسلام، وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٧٥).

والسلام، وأزاح عنا الضلالة، وجمعنا بعد الفرقة، وألَّف بين قلوبنا من بعد البغضاء؛ فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد، فقد قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧]، ثم قرأ: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف:١٧].

أما بعد،،

فإني أوصيكم بتقوى الله عز وجل الذي يبقى ويفنى كل شيء سواه، الذي بطاعته ينفع أولياءه، وبمعصيته يفني أعداءه.. أيها الناس أدوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم، لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكورًا، افهموا ما توعظون به، فإن الكيس من أحرز دينه، وإن السعيد من اتعظ بغيره.. ألا إن شر الأمور مبتدعاتها، وعليكم بالسنة سنة نبيكم ﷺ فالزموها، فإن الاقتصاد في السنة حير من الاجتهاد في البدعة، والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب..

أيها الناس: إنه قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي فيكم، وقال: الزموا أصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد، ويحلف من لم يحلف، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، وتعوذوا من الشيطان، ولا يَخْلُونَّ أحد منكم بامرأة؛ فإنهن من حبائل الشيطان، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن،

والصلاة الصلاة..»

مر الوقت سريعا واقترب موعد اللقاء بين خليفة المسلمين وبطريرك بيت المقدس، ونظر أبو عبيدة ﷺ إلى الخليفة فلم يجد عليه سوى هذا اللباس الخشن الذي أبلى طول السفر أكثره فصار أطمارا بالية؛ فقال يا أمير المؤمنين: هلا اتخذت ثيابا غير هذه التي عليك وأنت خليفة المسلمين؟! بيد أن عمر ﷺ لم يعبأ بهذه (البروتوكولات) المقيدة لحريته، وأبى أن يلبس غير هذه الملابس المتواضعة التي تذكِّره بنفسه كلما أنساه الموقف.. فلم يشأ أن يتسلل الكبر إلى داخل نفسه في هذا الموضع الذي يبعث على الفخر والتعالي..

وما أجمل ما قاله عبادة بن عوف الدينوري رحمه الله واصفا عمر بن الخطاب ﷺ في زهده وتواضعه، يقول رحمه الله:

لما لبس عمر مُرقَّعته وجعل يتميز في شمائل فقره، والكائنات تتعجب من زهده وصبره، عندما تزينت له الدنيا بملابسها، وتراءت له في حلل أمنيتها بواسطة حدثان مشيئتها، وقد جعلت أشباح شهواتها على قمة رأس مرآتها، وأقبلت رافلة في حلة مراودته مطلقة عند الطمع في طلب زوال مجاهدته معرضة بملابس جمالها على سوق معارضته في سناء قبلة مرآة تبهرجها في عين مشاهدته، واقفة على قدم الاستدراج إلى ترك خدمته، جاعلة ودادها ذريعة إلى وصلته، وعمر قد أمسك عرى طاعته بيد

عصمته، فلما نصبت له حبائل بلاها ولم تره، وقع في أشراك هواها أسمعت في معناها قد شغفها حبًا إنا لنراها، وقالت: يا عمر، قد وليت أرضي، فلا بد من القيام بفرضي، فالولاية لا تقوم إلا بالملابس الهنية، والمآكل الشهية، والظلم في الرعية؛ فقال عمر: اذهبي فلست من رجالك، ولا ممن يقع في حبالك، ولا في أوحالك، أما علمت أني قد تجردت لمعاندتك، ولا حاجة لي في مشاهدتك، وها أنا على قدم تجردت لإقامة دعوة سيد الأمم حتى أفتح بلاد الروم والعجم، ثم أظهر في وجهها صارم اجتهاده من معنى قوله: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].. (انتهى)

كلمات جميلة جمعت فأوعت عن هذا الخليفة العادل الذي عاش حياته زاهدا إلا في ثواب الله تعالى، وعازفا إلا عن رحمته ﷺ.

حانت لحظة اللقاء بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وبطريرك القدس، وما إن توجه ﷺ إلى البطريرك حتى مسح البطريرك عينيه غير مصدق، ومرت لحظات حتى هتف قائلا: هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا، ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة، ثم إنه قال لأهل بيت المقدس: يا ويحكم!! انزلوا إليه، واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا -والله- صاحب محمد بن عبد الله.

فلما سمعت الروم كلام البطريرك نزلوا مسرعين -وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار- ففتحوا الباب، وخرجوا إلى عمر بن الخطاب

يسألونه العهد والميثاق والذمة، ويقرون له بالجزية، فلما نظر إليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخرَّ ساجدًا على قتب بعيره، ثم نزل إليهم وقال: ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذ سألتمونا وأقررتم بالجزية.

ودخل المسلمون بيت المقدس بعد أيام طوال أمضوها في قرٍّ شديد، تيبست منه أطرافهم، وصدق الله تعالى وعده..

ما هي إلا لحظات حتى رأى المسلمون من زينة تلك البلدة ما لم يروه طيلة فتوحاتهم، وجعلوا يعجبون لهذه الزينة، وهم من اعتادوا تلك الحياة الخشنة التي لا تعرف مفردات البيئة الصحراوية الخشنة، وهتفوا قائلين: الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرًا منها شربة ماء، قال عوف بن سالم: فوالله ما من المسلمين من جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه.

وحفظا لحقوق غير المسلمين في بيت المقدس كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهم عهدا يعتبر مأثرة من مآثر الحضارة الإسلامية، وبرهانا ساطعا على التسامح العملي للمسلمين قبل أن يعرف العالم القانون الدولي الإنساني، ولا القانون الدولي لحقوق الإنسان، ولا تلك الدساتير الجوفاء التي تُخرق ليل نهار، تارة باسم محاربة الإرهاب، وتارة أخرى تمكينا لعروش الظالمين.

وقد جاء في هذا العهد أو ما سُمي بالوثيقة العمرية:

(هـذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبانهم، حتى يبلغوا مأمنه، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.. شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية

بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة)[١]

ومع فتح بيت المقدس تحققت نبوءة جديدة للنبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ففي صحيح البخاري «عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَتَيْتُ اَلنَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَم فَقَالَ: اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيْ اَلسَّاعَةِ، مَوْتِي ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ اَلْمَقْدِسِ، ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ اَلْغَنَمِ، ثُمَّ اِسْتِفَاضَةُ اَلْمَالِ، حَتَّى يُعْطَى اَلرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنْ اَلْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي اَلْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اِثْنَا عَشَرَ أَلْفًا»[٢].

وهكذا صار بيت المقدس[٣] تحت حكم المسلمين بعدما ظل يرزخ سنوات طوالًا تحت حكم الروم، يعاني من ظلمهم واضهادهم، وصدق قول الفرزدق:

وَبيتان: بَيتُ اللهُ نَحنُ وُلاتُه وَبيتٌ بِأَعلى إِيلياءَ مُشرّفُ

---

(١) راجع الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (٣/٦٠٩)، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٠م. وقد اختلف المؤرخون في العام الذي فُتح فيه بيت المقدس، فذهب فريق منهم إلى أنه كان في العام السادس عشر من الهجرة، بينما الأرجح هو ما ذهب إليه ابن الأثير، وابن كثير: أنه كان في العام الخامس عشر من الهجرة.

(٢) راجع: صحيح البخاري،٣١٧٦، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠هـ.

(٣) اعتمدنا في أكثر الروايات التي أرخت لفتح بيت المقدس على كتاب فتوح الشام للواقدي.

حصار الروم لأبي عبيدة

أقدم جمعٌ من الروم – سنة سبع عشرة من الهجرة – على محاصرة أبي عبيدة رضي الله عنه وجيشه بحمص، واستعانوا في ذلك بأهل الجزيرة، فأرسل أبو عبيدة رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكان يومئذ بقِنَّسرين، وكتب إلى عمر رضي الله عنه (١) واستشار أبو عبيدة رضي الله عنه المسلمين؛ فأشاروا عليه بالتحصُّن، وأمر خالد بن الوليد رضي الله عنه بقتالهم، بيد أنه نزل على رأي الأغلبية.

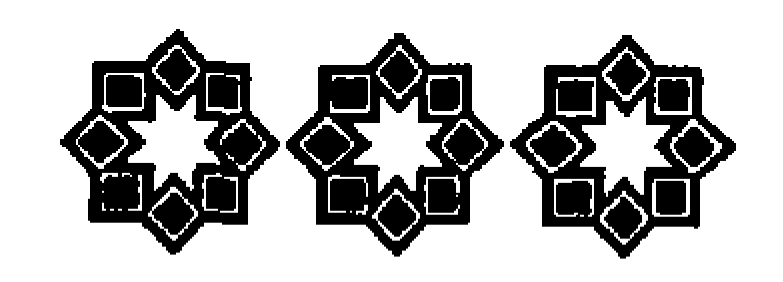
وما أن بلغ الكتاب عمر رضي الله عنه حتى أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمره أن يُسيِّرَ مدداً من الجنود مع القعقاع بن عمرو رضي الله عنه إلى حمص لمؤازرة أبي عبيدة رضي الله عنه، كما أمره أن يبعث جيشاً إلى أهل الجزيرة الممالئين للروم على حصار أبي عبيدة رضي الله عنه، ويكون على الجيش عياض بن غنم رضي الله عنه، فخرج الجيشان، وخرج عمر رضي الله عنه بنفسه مر المدينة.

ولما علم أهل الجزيرة بأمر المسلمين، ووفودهم لمؤازرة أبي عبيدة رضي الله عنه رجعوا إلى بلادهم، وتركوا الروم، يقول ابن كثير: «وأشار خالد على أبي عبيدة، بأن يبرز إليهم ليقاتلهم، ففعل ذلك أبو عبيدة، ففتح الله عليه ونصره، وهُزمت الروم هزيمة فظيعة، وذلك قبل ورود عمر عليهم، وقبل وصول الإمداد إليهم بثلاث ليال»(٢).

---

(١) انظر نص الرسالة في الفصل الخاص برسائل أبي عبيدة ومواعظه.
(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٠٢).

وهكذا تنقل أبو عبيدة رضي الله عنه من جهادٍ إلى جهادٍ، ومن عناءٍ إلى عناءٍ، ففتح الله عز وجل على يديه عدة أصقاع عشش الجهل فيها وفرَّخ، فكان بحق أمينًا لهذه الأمة، وأمينًا على دين الله... أمينًا على شريعته، وكان بحق ممن كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه.



الفصل الخامس

رسائل أبي عبيدة ومواعظه

رسائل أبي عبيدة ومواعظه

«ما من الناس من أحمر ولا أسود، حر ولا عبد، عجمي ولا فصيح، أعلم أنه أفضل مني بتقوى، إلا أحببت أن أكون في مِسْلاخِهِ»[1]

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

انصب اهتمام العرب في الجاهلية على فن أدبي أساس وهو الشعر؛ فقد كان يمثل ديوانهم الأول.. يسجل بطولاتهم ويؤرخ لأحداثهم، ويأتي النثر في المرتبة الثانية ويمثله الخطابة التي امتاز بها بعض فصحاء العرب، أما فن الرسائل فلم يكن معروفًا قبل الإسلام، ثم شهد هذا الضرب من الفنون الأدبية ميلادا حقيقيا ونقلة نوعية في صدر الإسلام حيث اتخذ النبي ﷺ من الرسالة وسيلة دعوية جديدة؛ فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الدخول في هذا الدين الجديد.. واستمر الخلفاء الراشدون على نفس النهج؛ فاتخذوا الكُتَّاب لرسائلهم لتكون وسيلة

(١) حلية الأولياء (١/ ١٠١). وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٨)، والطبقات الكبرى (٣/ ٤١٣).

للتواصل بينهم وبين ولاتهم على الأمصار.

وتمثل كل من الرسائل والمواعظ جانباً مهماً في حياة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ، فقد كثرت رسائله لعمر بن الخطاب ﷺ، وتناقل الناس مواعظه وخطبه في المسلمين، وقد رأينا من المهم أن نفرد هذا الفصل للحديث عن هذين العنصرين المهمين في حياته السياسية والحربية، ولما انطوت عليه من أساليب بلاغية راقية.

رسائل أبي عبيدة ﷺ

وقد بدأت المراسلات في وقت مبكر بين عمر بن الخطاب ﷺ وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ، فكتب هو ومعاذ بن جبل إليه بعد أن استخلفه أبوبكر الصديق، يذكّرانه بثقل الأمر الذي أُسند إليه، ويحذرانه من عاقبة التقصير في أداء واجبه في رعاية حقوق الرعية، ونُصرة الضعيف والمظلوم:

من أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب

سلامٌ عليك، أما بعد،،

فإنا عهدناك وأمرُ نفسك لك مهمٌ، فأصبحت قد وُلِّيت أمْرَ هذه الأمة، أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، يا عمر! فإنا نحذرك يوماً تعنى فيه الوجوه، وتجفُّ فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته، فالخلق

داخرون له، يرجون رحمته، ويخافون عقابه، وإنَّا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية أعداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك. والسلام عليك[1].

وقد نزل هذا الخطاب من عمر بن الخطاب ﷺ منزلة حسنة، ولم لا؟! وقد أُرسل من صحابيين من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ وأحبِّهم إليه، ولذا كان عمر يُجلُّهما ويعظِّمهما لقدرهما عند النبي ﷺ، وقد رُوي عنه أنه قال حين كان بالشام: «إن أدركني أجلي، وأبو عبيدة حيٌّ، استخلفته، فإن سألني الله ﷻ: لم استخلفته على أمة محمد؟! قلت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمةٍ أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح...» ثم قال: وإن أدركني أَجَلي وقد تُوفي أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل، فإن سألني ربي قلت: إني سمعت نبيك يقول «إنه يحشر يوم القيامة بين يدي العلماء»[2].

وقد ردَّ الفاروق ﷺ على هذه الرسالة برسالة أخري امتزجت بالتواضع وخفض الجناح والإذعان للنصيحة، وهي صفات حَرِيٌّ بكل من ولي أمرًا من أمور الناس أن يتحلَّى بها، تقول الرسالة:

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى (٢/ ١٢٠-١٢١).
(٢) المرجع السابق.

من عمر بن الخطاب إلي أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ

سلام عليكما، أما بعد،،

أتاني كتابكما، تذكران أنكما عهدتماني وأَمْرُ نفسي لي مُهِمٌ، فأصبحتُ قد وُلِّيت أمْر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يدي الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكلٍ حصته من العدل.

كتبتما: انظر كيف أنت عند ذلك يا عمر، وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله ﷻ، وكتبتما تحذراني ما حُذِّرتْ منه الأمم قبلنا، وقديمًا كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يُقرِّبان كلَّ بعيد، ويُبليان كلَّ جديد، ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار.

كتبتما تحذراني: أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بأولئك، وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم.

كتبتما تعوذاني بالله أن أُنزلَ كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وأنكما كتبتما به نصيحة لي؛ وقد صدقتما، فلا تدعا الكتاب إليَّ، فإنه لا غني بي عنكما. والسلام عليكما[1].

---

(١) حياة الصحابة (٢/ ١٢٠ وما بعدها).

وقد اتسع صدر عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسالة أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما، فلم يضق بكلامهما ذرعا، ولم تأخذه العزة بالإثم -كما هو معروف عن أكثر الحكام إلا من رحم- مع أنه الخليفة وهم الرعية؛ بل وإلى أبعد من هذا الحد، فهو يستجدي نصيحتهم بقوله: فلا تدعا الكتاب إليَّ، فإنه لا غني بي عنكما.. فأي تواضع هذا؟! وأي إحساس بالمسئولية تجاه الرعية؟! إنه إحساس الخليفة العادل الذي طرب الزمان لعدله، وتناقل القاصي والداني ورعه!!

وذات مرة بلغ عمر رضي الله عنه أن الروم قد حاصروا أبا عبيده رضي الله عنه ومن معه من أفراد الجيش، ونَالَ منه العَدُوُ نيلا، فكتب إليه يَشُدُّ من أزره، ويَربِطُ على قلبه: جاء في الرسالة:

أما بعد فإنه ما نزل بعبدٍ مؤمنٍ شدةٌ، إلا جَعَلَ الله بعدها فرجًا، وإنه لا يَغلبُ عُسْرٌ يُسْرَيْن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠][1]

ووصلت الرسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في محنته، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلا:

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥).

أما بعد،

فإن الله يقول﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[الحديد:٢٠][(١)].

وما إن تَلَقَّى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رد أبي عبيدة رضي الله عنه على رسالته حتى خرج فقرأه على المنبر؛ فقال: يا أهل المدينة، إنما يُعرّض بكم أبوعبيدة أو بي، ارغبوا في الجهاد[(٢)].

وحدث أن جماعة من أفراد الجيش شربوا الخمر؛ فأرسل أبوعبيدة رضي الله عنه إلى الخليفة عمر رضي الله عنه يخبره بما كان من أمرهم، يقول الحافظ ابن كثير: «كتب أبوعبيدة إلى عمر بن الخطاب أن نفرًا من المسلمين أصابوا الشراب، منهم ضرار، وأبو جندل بن سهل، فسألناهم؛ فقالوا: خُيِّرنا فاخترنا، قال: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة:٩١] ولم يعزم؛ فجَمَعَ عمر الناس فأجمعوا على خِلافِهم، وأنَّ المعنى: فهل أنتم منتهون أي انتهوا، وأجمِعوا على جَلْدِهم ثمانينَ ثمانينَ. وأنَّ من تأوَّل هذا التأويل، وأصرَّ

---

(١) المرجع السابق وبتصرف.

(٢) المرجع السابق بتصرف (١/ ١٦)

عليه يُقتل، فكَتَبَ عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه: أن ادعُهم فَسَلْهُم عن الخمر، فإن قالوا هي حلالٌ، فاقتلهم، وإن قالوا: هي حرام، فاجلدهم، فاعترف القوم بتحريمها فجُلدوا الحدَّ، وندموا على ما كان منهم من اللجاجة فيما تأوَّلوه، حتى وَسْوَسَ أبو جندل في نفسه، فكتب أبوعبيدة إلى عمر في ذلك، وسأله أن يكتب إلى أبي جندل ويذكِّره، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك:

أما بعد،

من عمر بن الخطاب إلى أبي جندل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨] فتُب، وارفع رأسك، وابرُز، ولا تقنُط، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

وكتب عمر رضي الله عنه إلى الناس:

إنَّ عليكم أنفسكم، ومن غَيَّر فغيِّروا عليه، ولا تُعيِّروا أحدًا فيفشو فيكم البلاء[١].

وكتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهزيمة الله المشركين، وبما أَفَاءَ الله على المسلمين، وما أَعطَى أهل الذمة من الصلح،

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٢٣ – ١٢٤) بتصرف.

وما سأله المسلمون منّ أن يُقسِّم بينهم المدن وأهلها، والأرض وما فيها من شجر أو زرع، وأنَّه أَبَىَ ذلك عليهم، حتى كتب إليه فيه ليكتب إليه برأيه؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب ﷺ:

«إني نظرت فيما ذكرت مما أفاء الله عليك، والصلح الذي صالحت عليه أهل المدن والأمصار، وشاورت فيه أصحاب رسول الله ﷺ فكلٌّ قد قال في ذلك برأيه، وإن رأيي تَبَعٌ لكتاب الله، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[الحشر:٦-٨]: هم المهاجرون الأولون، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[الحشر:٩]: فإنهم

الأنصار، والذين جاءوا من بعدهم: ولد آدم الأحمر والأسود؛ فقد أشرك الله الذين من بعدهم في هذا الفيء إلى يوم القيامة؛ فأقر ما أفاء الله عليك في أيدي أهله، واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم تقسمها بين المسلمين، ويكونون عمار الأرض، فهم أعلم بها وأقوى عليها، ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تُصيِّرهم فيئا وتقسمهم للصلح الذي جرى بينك وبينهم، ولأخذك الجزية منهم، وقد بيَّن الله لنا ولكم فقال في كتابه: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[التوبة:٢٩].

فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ولا سبيل؛ أرأيت لو أخذنا أهلها فاقتسمناهم، ما كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين؟! والله ما كانوا يجدون إنسانا يكلمونه، ولا ينتفعون بشيء من ذات يده، وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياءً، فإذا هَلَكَوا وهَلَكنا؛ أكل أبناؤنا أبناءهم أبدًا ما بقوا، فهم عبيدٌ لأهل دين الإسلام ما دام الإسلام ظاهراً؛ فاضرب عليهم الجزية، وكُفَّ عنهم السَّبي، وامنع المسلمين من ظلمهم، والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقها، وفِ لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم.وأما إخراج الصلبان في يوم

عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بنود، على ما طلبوا منك يوما في السنة، فأمَّا داخل بيوت المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان[1].

مواعظ أبي عبيدة رضي الله عنه

عاش أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عازفًا عن الحياة الدنيا وزينتها، راغبًا عنها، وإنما كان ذلك إيمانا منه بأن الدار الآخرة هي خير وأبقى، فهل الحياة إلا دقائقُ وثوانٍ تمُرُّ سراعًا؟! والكَيِّسُ فيها من دَانَ نفسَه وعَمِلَ لما بعد تلك الحياة.. إلى حياة أخرى سرمدية.

كان الزهد سمة واضحة في حياة ابن الجراح رضي الله عنه فقد أرسل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأربعة آلاف أو أربعمائة دينار مع غلامٍ له، وقال له: انظر ماذا يصنع بها، فأنفَقَهَا كلَّها ولم يبق منها شيئا، ثم أرسلَ عمر رضي الله عنه إلى معاذ رضي الله عنه بمثل ما بعثه لأبي عبيدة رضي الله عنه، ففرَّقها إلا شيئًا قليلًا، فقالت له امرأته: نحتاج إليه، فلمَّا أخبر الغلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك سُرَّ وقال: الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا[2].

وحين قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام، تلقَّاه الناس وليس فيهم أبو عبيدة رضي الله عنه فسألهم: أين أخي أبو عبيدة؟! قالوا الآن يأتيك،

---

(١) الخراج ص٢٨٤ وما بعدها.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ١٧).

فجاء على ناقةٍ له، فسلَّم عليه، وسار معه حتى أتيا بيته، فلم يـر عمر رضي الله عنه في بيته إلا سيفه وترسه ورحله؛ فتعجَّب عمر رضي الله عنه لـذلك، ثـم سـأله: أعنـدك طعـام ؟! فقـام أبوعبيـدة رضي الله عنه إلى كُـسيرات مـن خبز؛فأعطاها إياه؛ فبكى عمر رضي الله عنه، وقال له: لـو اتخذتَ متاعـاً، فقـال أبوعبيدة رضي الله عنه يا أمير المؤمنين: إن هذا يُبلِّغنا المقيل، فقال عمر رضي الله عنه: غيَّرتنا الدنيا كلنا؛ إلا أنت يا أبا عبيدة [1].

عن مسلم بن أكيس مولى ابن كريز عن أبي عبيدة رضي الله عنه، قـال: ذكـر لي مـن دخـل عليـه فوجده يبكـي، فقـال مـا يبكيـك يـا أبـا عبيدة؟ قـال: يبكيني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكر يوماً ما يفتح الله على المسلمين، حتى ذكر الـشام، فقـال: إن نَـسَأَ الله في أَجَلِـكَ فحسبُكَ مـن الـدوابِّ ثلاثـةٌ: دابـةٌ لرحْلِكَ، ودابةٌ لِثِقَلِك، ودابـةٌ لغلامـك، ثـم هـا أنـا ذا أنظر إلى بيتـي قـد امتلأ رقيقا، وإلى مربطـي قـد امـتلأ خيلاً، فكيـف ألقـى رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعدها وقد أوصـانا: إنَّ أحبكـم إليَّ، وأقـربكم منّـي مَـن لقينـي عـلى مثـل الحال التي فارقتكم عليها [2].

هذه الرواية أوردها الذهبى وقال عنها حديث غريب [3]، وقال ابن

(١) نفس المرجع (١/ ١٦، ١٧).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٢-١٣).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٣).

عساكر «هذه الرواية منقطعة والمحفوظ أن أبا عبيدة كان متقلِّلاً»[١] والحقيقة أن هذه الرواية وأمثالها لا يمكن الوثوق بها، فليس في حياة ابن الجراح رضي الله عنه ما يجعلنا نطمئن لها، وما كان لأبي عبيدة رضي الله عنه أن يمتلأ بيته خدماً وخيلاً، وأن يعيش مثل هذه المعيشة المترفة، فقد كان رضي الله عنه زاهداً في الدنيا، راجياً الله واليوم الآخر.

لقد حيا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه متواضعاً، خافضاً جناحه للمؤمنين وديداً لهم، مقتفياً بذلك أثر النبي ﷺ في تواضعه وحلمه، حتى إنه قام خطيباً في الناس ذات مرة قائلاً:

«ما من الناس من أحمَرَ ولا أسودَ، حرٍ ولا عبدٍ، عجميٍ ولا فصيحٍ، أعلم أنه أفضل مني بتقوى إلا أحببتُ أن أكون في مِسْلاَخِه»[٢]

وقد كان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه – مع كل ما أوردناه من فضائله – شديد الخوف من الله عز وجل، فنجده يقول، وهو من هو: لوددت أنني كبشٌ يذبحني أهلي فيأكلون لحمي، ويَحسُون مَرَقِي[٣]، وكان يقول «مَثَلُ قلبِ المؤمنِ مثل العصفورِ، يتقلَّبُ كل يوم كذا وكذا مرة»[٤]

---

(١) تهذيب تاريخ دِمشق (٧/ ١٦٥).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٠١). وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٨)، والطبقات الكبرى (٣٤١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ١٨)، وانظر الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٣).

(٤) حلية الأولياء (١/ ١٠٢)

لم يكن أبو عبيدة رضي الله عنه يبغي النجاة بنفسه فقط؛ وإنما كان كثير المواعظ لمن معه من المسلمين عامة، والجند خاصة، وذلك لإيمانه الكامل بالمسئولية تجاه كل المسلمين، فكان يقول لهم:

«ألا رُبَّ مبيضٍ لثيابِهِ، مدنسٌ لدينِهِ.. ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهينٌ.. ادرأوا السيئاتِ القديماتِ بالحسناتِ الحديثاتِ، فلو أنَّ أحدكم عَمِلَ من السيئاتِ ما بينه وبين السماء، ثم عَمِلَ حسنةً لَعَلَت فوق سيئاتِهِ حتى تقهرهن»[1]

ظلَّ أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ناصحاً من حوله من المسلمين، فلم يدَّخر وسعاً في إسداء النصائح لهم، حتى حين حضرته الوفاة قام خطيباً فيمن حضره من المسلمين وقال:

«إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدَّقوا، وحُجُّوا، واعتَمِروا وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشُّوهم، ولا تُلهِكُم الدنيا، فإن امرءاً لو عَمَّر ألفَ حَوْلٍ ما كان له بُدٌّ من أن يصيرَ إلى مصرعي هذا الذي ترون.

إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، فأكْيَسُهم أطوَعُهُم لربه، وأعملُهُم ليوم معاده.

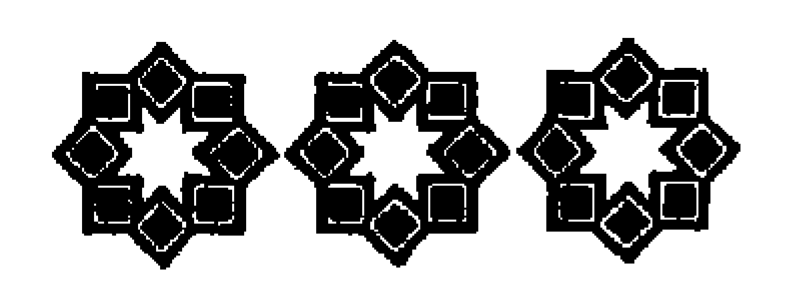
---

(١) المرجع السابق (١/ ١٠٢)، وانظر لواقح الأنوار (١/ ١٩)، سير أعلام النبلاء (١/ ١٨)، الإصابة (٢/ ١٢).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1]

وبنظرة فاحصة لرسائله ومواعظه وخطبه، نجد أنها أظهرت بلاغته العالية وأدبه الرفيع، فجاء أسلوبه رصينا، جامعاً بين الفصاحة والبساطة، بعيداً عن السجع والتكلف.

ولقد نمَّت هذه الرسائل والمواعظ في مجملها عن لسانٍ فصيح، وعقلٍ ناضج، ونفسٍ زكيةٍ رحيمةٍ، ثم عن حُنكةٍ سياسيةٍ، ودرايةٍ حربيةٍ، وكلها صفاتٌ لم تكن لأحدٍ سوى صاحب هذه الشخصية الفذة الفريدة.



(١) حياة الصحابة (٢/ ١٢٢).

الفصل السادس

نهاية المطاف

نهاية المطاف

«إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، فأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده»[1]

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

جاءت السنة الثامنة عشر من الهجرة، وقد تفشَّى طاعون عَمَوَاس في الشام، وعَمَوَاس بلدة صغيرة بين القدس والرملة - لأنها كانت أول ما نجم الداء بها، ثم انتشر في الشام منها، فنُسب إليها[2]، وقيل «إن ذلك كان لقولهم عمَّ وآس...»[3] وقال ابن الأثير «عَمَوَاس: بفتح العين المهملة والميم والواو وبعد الألف سين مهملة»[4]

وقد عمَّ هذا الطاعون كثيرًا من بلاد الشام حتى إن المؤرخ الواقدي

---

(١) حياة الصحابة (٢/ ١٢٢).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٢٤).

(٣) الاستيعاب (٢/ ٣٤٣)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣).

(٤) الكامل (٢/ ٣٩٢).

يُقدّر عدد من مات فقط من المسلمين بالشام بخمسة وعشرين ألفا، وقال غيره ثلاثون ألفا...»[(١)].

وتشير بعض المصادر إلى «أن قوماً زعموا أن أبا عبيدة كان في ستة وثلاثين ألفاً من الجند، فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل..»[(٢)] وذهب ابن الأثير إلى أنه «كان عدة من مات في طاعون عَمَوَاس خمسة وعشرين ألفاً»، ومن الصحابة الذين استُشهدوا في هذا الطاعون مع أبي عبيدة بن الجراح معاذ بن جبل، والحارث بن هشام، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن عباس بن عبد المطلب، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو جندل ابن سهيل بن عمرو، وأبو مالك الأشعرى[(٣)].

وصل خبر الطاعون إلى عمر بن الخطاب ﷺ؛ فأصابه الذعر، وتعاظم قلقه على أبي عبيدة ﷺ، ففضلا عن حبه الشديد له فقد كان يتمنى أن يستخلفه على المسلمين، ففيه من صفات القيادة ما يؤهله للخلافة، فأرسل عمر ﷺ خطاباً مقتضبا إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يقسم عليه أن يترك الشام ويأتيه متعللا بحاجته إليه، يقول نص الخطاب:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩).

(٢) الكامل (٢/ ٣٩٢).

(٣) راجع ابن كثير – المرجع السابق (٤/ ١٢٥ وما بعدها).

أما بعد...

فإني بدت لي حاجة إليك فلا غنى بي عنك فيها، فإن أتاك كتابي ليلاً فإني أعزم عليك أن تصبح حتى تركب إلي، وإن أتاك نهاراً فإني أعزم عليك أن تُمسي حتى تركب إليَّ.

فلما قرأ أبوعبيدة ﷺ الرسالة، قال: قد علمت حاجة أمير المؤمنين التي عرضت، وأنه يريد أن يستبقي من ليس بباق؛ فكتب إليه:

أما بعد...

إني في جند من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم، وإني قد علمت حاجتك التي عَرَضَت لك، وإنك تستبقي من ليس بباقٍ؛ فإن أتاك كتابي هذا فِحْللني من عزمك، وائذن لي في الجلوس[1]

«فلما قرأ عمر ﷺ الكتاب بكى، فقيل له: مات أبوعبيدة ؟! قال: لا، وكأن قد»[2]

وقد كان قدر أبي عبيدة ﷺ عظيمًا عند عمر بن الخطاب ﷺ، تدل على ذلك تلك النصوص الواردة في كثير من كتب السير والتراجم، فعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب ﷺ «أنه قال

---

(١) حياة الصحابة (٢/ ٧٧-٧٨) بتصرف، وعزمت عليك: بمعنى أقسمت، هكذا في مختار الصحاح ص٤٣١.
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩).

لأصحابه تمنّوا، فقال رجل: أتمنّى لو أن لي هذا الدار مملوءةً ذهبا أُنفقه في سبيل الله، ثم قال: تمنَّوا، فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤا وزبرجدا وجواهراً أُنفقُه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال: تمنَّوا، فقالوا ما ندري يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح»[1] وعن تميم بن سلمة «أن عمر لقي أبا عبيدة، فصافحه، وقبَّل يده وتنحيا يبكيان»[2]

وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في زيارة للشام، فلقيه بعض نصارى أذرعات[3] يلعبون بالسيوف أمامه، وكان ذلك دأبهم في الاحتفال بالعظماء، فغضب عمر رضي الله عنه، وأمر بردِّهم، لأنه كان يكره الأُبَّهة، فقال أبوعبيدة رضي الله عنه له: يا أمير المؤمنين هذه عادتهم، وإنك إن تمنعهم يروا أن في نفسك نقضا لعهدهم، فقال عمر رضي الله عنه: دعوهم، عمرُ وآلُ عمر في طاعة أبي عبيدة..

إلى هذا الحد؛ بل وأبعد من ذلك كان حب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإجلاله لهذا المجاهد الأمين..ولم يَفْرُق أبوعبيدة رضي الله عنه من الطاعون الذي ضرب الشام طاعةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٠٢)، والخبر في الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥).

(٣) بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، انظر معجم البلدان (١/ ١٦٢).

فلا تقدموا عليه، وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه»[1]

لم يُجد خطاب عمر رضي الله عنه لأبي عبيدة رضي الله عنه، فقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه قد تجهز للشهادة التي ظلت نفسه تتوق إليها في كل معركة يخوضها تحت لواء الإسلام.. وهنا عزم عمر رضي الله عنه على الذهاب إلى أبي عبيدة ليأتي به فرارًا من الطاعون، فمثل هذا الرجل تحتاج إليه الدولة في بسط فتوحاتها وتأمين حدودها.

وما هي إلا أيامًا معدودات حتى وصل عمر رضي الله عنه إلى الشام، فنزل بمكان يقال له سرغ[2] فلقيه أمراء الأجناد وفيهم أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فاخبروه بالوباء وشدته، وكان معه المهاجرون والأنصار، فاستشارهم فاختلفوا عليه، فمنهم القائل: «خرجت لوجه الله؛ فلا يصدنّك عن هذا، ومنهم القائل: إنه بلاءٌ وفناءٌ فلا نرى أن تقدم عليه؛ فقال لهم: قوموا عني، ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم، فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فقال أبوعبيدة: أفرارًا من قدر الله؛ فقال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله..»[3]، وروى ابن حجر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: «لو

---

(١) الكامل (٢/ ٣٩٢).
(٢) أول الحجاز وآخر الشام، انظر معجم البلدان (٥/ ٧٠).
(٣) الكامل (٢/ ٣٩٢) بتصرف.

غيرك قالها يا أبا عبيدة»[١] إذًا فلم يكن عمر رضي الله عنه يعدل بأبي عبيدة رضي الله عنه أحدا، فقد كان يراه أمة جامعا لكل خصال الخير.

لقد ظل طلب الشهادة يراود أبا عبيدة رضي الله عنه طيلة حياته، الحافلة بالجهاد، ولكن شاء الله عز وجل ألا يموت في معركة من المعارك أو سرية من السرايا، وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. وفيه درس بليغ للمتقاعسين عن الجهاد في سبيل الله حذر الموت، فما إن تفشَّى الطاعون في الخلق حتى دعا ابن الجراح رضي الله عنه ربه أن يكتب له الشهادة.

وقيل إنه رضي الله عنه قام فخطب في الناس قائلاً «أيها الناس: إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة سأل الله أن يَقسِم له منه حظَّه»[٢]، وعن عروة «أن وجع عَمَوَاس كان معافى منه أبوعبيدة وأهله، فقال: اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة، قال: فخرجت في خنصره بثرة[٣] فجعل ينظر إليها، فقيل له: إنها ليست بشيء؛ فقال: أرجو أن يبارك الله فيها، فإنه إذا بارك في القليل كان كثيراً»[٤]

ويروى ابن الأثير أنه رضي الله عنه كان يُقبِّل الطعنة في يده راضيًا ويقول: «ما أُحبُّ أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا»[٥]، وفي رواية للذهبي «أن معاذ بن

---

(١) الإصابة (٢/ ١١).
(٢) الكامل (٢/ ٣٩١).
(٣) البثر: «نفاخات صغار بها صديد تظهر بالجلد...» (المعجم الوجيز ص٣٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٢)، وانظر أسد الغبة (٣/ ٢٦).
(٥) الكامل (٢/ ٣٩١).

جبل أرسل الحارث بن عميرة إلى أبي عبيدة بن الجراح ليطمئن عليه، فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله: ما يحب أن له مكانها حمر النعم»[(١)].

ولما مرض أبو عبيدة رضي الله عنه عاده الناس؛ فدخل عليه عياض بن غطيف يعوده، وامرأته جالسة عند رأسه، فسألها: كيف بات أبو عبيدة ؟ قالت: بات بأجر، فقال: إني والله ما بتُّ بأجر، فكأن القوم ساءهم، فقال: ألا تسألوني عما قلت، قالوا: إنا لم يعجبنا ما قلت، فكيف نسألك؟! قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبع مائة، ومن أنفق على عياله، أو عاد مريضاً، أو ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حطة»[(٢)].

أحسَّ أبو عبيدة رضي الله عنه بدنو أجله، فلكل شيء نهاية، فقام خطيبا في الناس موصياً من حضره من المسلمين وصية جامعة، جاء فيها:

«إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير: فأقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امرءا لو عمِّر

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٢)، وانظر أسد الغابة (٣/ ٢٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩ وما بعدها) بتصرف.

ألف حَوْلٍ ما كان له بُدٌّ من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون. إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، فأكيَسُهُم أطْوَعُهم لربه، وأعْمَلُهم ليوم معاده[1].

جمع أبو عبيدة ﷺ أصحابه ليوصيهم؛ فطلب إليهم أن يبلغوا عمر بن الخطاب ﷺ منه السلام، ويُعْلموه أن أبا عبيدة ﷺ أدى ما عنده من أمانات، وفصل في المنازعات التي وكلت إليه، ولكنه لم ينس قضية شُغل بها لامرأة تزوجت في يوم بقي من عدتها، ولم يقض في أمرها بشيء..

يا إلهي.. وأنت على فراش الموت تعالج سكراته يا أبا عبيدة.. فأين أنت لترى حقوقا ضائعة، ومظالم مهضومة دون أن تطرف لها عين أو يتحرك لها ساكن؟!

وأوصى أبو عبيدة ﷺ بدفنه حيث تعاجله المنية، وقد سجَّل لنا التاريخ جانبا من هذه الوصية التي جاء فيها «أقرئوا أمير المؤمنين مني السلام، وأعلموه أنه لم يبق من أمانتي شيء إلا وقد قمتُ به وأديتُه إليه؛ إلا ابنة خارجة، نُكحت في يوم بقي من عدتها لم أكن قضيتُ فيها بحكومة، وقد كان بعث إليَّ بمائة دينار فردُّوها إليه، وادفنوني من غربي نهر الأردن إلى الأرض المقدسة، ثم قال: ادفنوني حيث قضيت، فإني

(١) حياة الصحابة (٢/ ١٢٢ وما بعدها).

أتخوف أن تكون سنة»[1].

وما هي إلا لحظات حتى جاء نداء السماء له؛ فصعدت الروح إلى بارئها؛ فقام معاذ بن جبل رضي الله عنه فخطب قائلاً:

«أيها الناس: توبوا إلى الله من ذنوبكم، فما من عبد يلقى الله تعالى تائباً من ذنبه إلا كان على الله حقاً أن يغفر له....

من كان عليه دين فليقضه، فإن العبد مرتهنٌ بدينه، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليلقه فليصالحه، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام.

أيها المسلمون: قد فُجعتم برجلٍ ما أزعم أني رأيت عبدا أبرَّ صدراً، ولا أبْعَدَ من الغائلة، ولا أشدَّ حباً للعامة ولا أنصح منه، فترحَّموا عليه، واحضروا الصلاة عليه.....»[2]

وفي رواية أخرى:

«إنَّكُم أيها النَّاسُ قَد فُجِعتُم بِرَجُلٍ والله مَا أزعُمُ أنِّي رأيتُ مِن عِبَادِ الله عَبدَاً قَطُّ أقَلَّ غَمزَاً، ولا أبرَ صَدراً، ولاَ أبعَدَ غَائِلَةً، ولا أشَدَ حُبّاً للعَاقِبَةِ، ولا أنصَحَ للعامَّةِ مِنهُ، فَتَرَحَّمُوا عَليهِ- رَحِمَهُ اللهُ، ثُمَّ أصحِرُوا للصَلاَةِ عَلَيهِ، فَوَاللهِ لا يَلِيْ عَلَيكُمْ مِثلَهُ أبَدَاً»[3]

---

(١) تهذيب تاريخ دِمشق (٧/ ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (نفس الموضع).

(٣) أخرجه الحاكم (٥١٤٨) وسكت عنه الذهبي.

ولنترك أبا سعيد المقبري فليحدثنا عن ذلك اليوم العصيب الذي فُجع فيه المسلمون بموت قائد من أعظم القادة، وصحابي من أجَلِّ الصحابة، يقول أبو سعيد «... فاجتمع الناس، وأُخرج أبو عبيدة، وتقدَّم معاذ فصلَّى عليه حتى إذا أُتي به قبره دخل قبره معاذ بن جبل، وعمرو بن العاص، والضحاك بن قيس، فلمَّا وضعوه في لحده وخرجوا فشنوا عليه التراب؛ فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه يا أبا عبيدة:

لأُثنينَّ عليك، ولا أقول باطلًا أخاف أن يلحقني بها من الله مقت كنت والله -ما علمتُ- من الذاكرين الله كثيرا، ومن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، ومن الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا، وكنتَ -والله- من المخبتين المتواضعين الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الخائنين المتكبرين»[1].

اختلفت الأقوال في المكان الذي توفي فيه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فذهب الذهبي إلى أنه انطلق «من الجابية إلى بيت المقدس للصلاة.... فأدركه أَجَلُه بِفِحْل فتُوفي بها بقرب بَيْسَان...»[2]

ويبدو أن هناك شبه إجماع على كونه رضي الله عنه توفي بِفِحْل، وبذلك

---

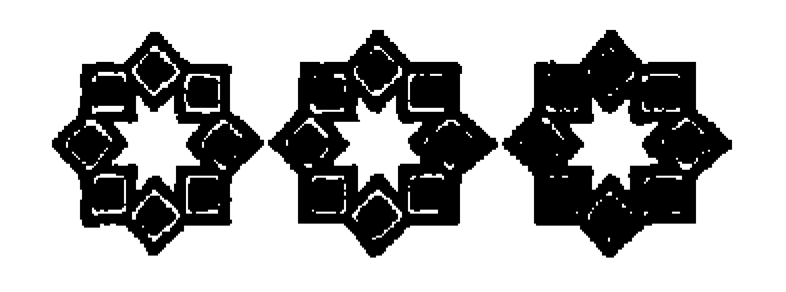
(١) المستدرك (٣/ ٢٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣)، و (بَيْسَان): مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال لها لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين (معجم البلدان (٢/ ٣٣١).

يكـون الاخـتلاف في المكـان الـذي دُفِـنِ فيـه، يقـول ابـن حجـر «.... انطلـق أبو عبيدة يريد الصلاة ببيت المقـدس فـأدركه أجله، فتـوفي هنـاك، وأوصى أن يُدفن حيث قضى، وذلك بفحل من أرض الأردن، ويُقال إن قبره ببَيْسَان»[1]

ولم يرجح ابن الأثير أي هذه الآراء؛ وإنما قال «فأدركه أجله بفحـل فتوفي بها، وقيل إن قـبره ببَيْسَان، وقيـل: تُـوفي بعَمَـوَاس»[2]، أي إن ابـن الأثير زاد رأياً آخر وهو أنه دُفن بعَمَوَاس، بيد أننا نرجح أنه ﷺ دُفـن ببَيْسَان، يقول البستانى «وقـبر أبي عبيـدة بغـور بَيْسَان عند قرية تُـسمَّى عميا، وعلى قبره أشياء تشير إلى جلالة قدره»[3]

ويبدو أن الإمام النووي رحمه الله قد زار قبر أبي عبيـدة ﷺ فوجـد عليه من الهيبة والوقار ما جعله يفصح عن ذلك بقولـه رحمه الله: «وَعَلَى قَبرِهِ مِنَ الجَلَالِةِ مَا هُو لائِقٌ بِهِ، وَقَد زُرتُهُ فَرَأيتُ عِندَهُ عَجباً»[4]



(١) الإصابة (٢/ ١٣).
(٢) أسد الغابة (٣/ ٢٦).
(٣) دائرة المعارف (٢/ ٢٤٥).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٥٩).


المراجع والفهرس

المراجع

أسد الغابة:

ابن الأثير، دار الفكر، ب. ت

أطلس تاريخ الإسلام:

د.حسين مؤنس، الزهراء، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

أطلس الحضارة الإسلامية:

د. إسماعيل الفاروقي، ولوس لمياء الفاروقي، ط مكتبة العبيكان، الأولى ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.

الأموال:

أبوعبيد القاسم بن سلام، تحقيق د.محمد عمارة، دار الشروق، ط الأولى، ١٤٩٠ هـ- ١٩٨٩م.

أعمار الأعيان:

ابن الجوزي، تحقيق محمود الطناحي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م.

الإصابة في تمييز الصحابة:

ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، ب. ت

تاريخ الخلفاء:

السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، الرابعة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

ابن عبد البر، تحقيق على محمود معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، الأولي ١٩٩٥/ ١٤١٥هـ.

البداية والنهاية:

ابن كثير، دار الغد، الثانية ١٤١١هـ-١٩٩٠م

تاريخ الدولة الإسلامية:

د.السيد داود، ١٩٩٤-١٩٩٥م.

تاريخ العالم الإسلامي:

د.إبراهيم العدوى، معهد الدراسات الإسلامية، ب.ت.

التاريخ الكبير:

البخاري، دار الفكر، ب. ت

تهذيب تاريخ دِمشق الكبير:

الحافظ بن عساكر، تهذيب عبد القادر بدران، دار المسيرة، الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تهذيب التهذيب:

ابن حجر العسقلانى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

الجامع الصحيح (سنن الترمذي):

الترمذي، الحلبي، الثانية ١٣٧٢هـ ١٩٧٥

الجرح والتعديل:

الرازي، دارالفكر، الأولي ١٣٧٢هـ ١٩٥٢

حلية الأولياء:

أبو نعيم الأصفهاني، الكتب العلمية، ب. ت

حياة الصحابة:

الكاندهلوى، دار الشهباء، ب. ت

حياة محمد:

محمد حسين هيكل، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

الخراج:

أبويوسف، تحقيق د.محمد إبراهيم البنا، دارالاعتصام، ب.ت.

دائرة المعارف:

البستانى، ط المعارف، ١٩٧٧م.

دائرة المعارف الإسلامية:

مجموعة من المستشرقين، ط دار الشعب. ب.ت.

الرحيق المختوم:

المباركفوري، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

سير أعلام النبلاء:

الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، دار الرسالة، الرابعة ١٤٠٦هـ ١٩٨٧م

السيرة المحمدية:

محمد فريد وجدى، الهيئة العامة للكتاب، ط ١٩٩٩م.

صحيح مسلم بشرح النووي:

النووي، ط الريان، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

صفة الصفوة:

ابن الجوزي، ابن خلدون، ب. ت

فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلانى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار المعرفة، ب ت.

فتوح البلدان:

البلاذري، الكتب العلمية، ب. ت، رضوان محمد

فتوح الشام:

الواقدى، ط دار الجيل، ب. ت.

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال:

البرهان فورى، تحقيق بكرى حيانى وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ—١٩٨٥م.

لواقح الأنوار في طبقات الأخيار:

الشعراني، الفكر العربي، ب. ت

مباحث في علوم القرآن:

مناع قطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ب.ت.

مختار الصحاح:

أبو بكر الرازى، دار الحديث، ب.ت.

مختصر سيرة ابن هشام:

لجنة السيرة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

المستدرك على الصحيحين:

الحافظ النيسابورى، تحقيق د يوسف المرعشلى، دار المعرفة، ب.ت.

مسند أبي يعلى الموصلي:

الحافظ التميمى، دار المامون للتراث، ط الأولى ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

معالم الحضارة الإسلامية في المملكة الأردنية الهاشمية:

د.وائل الرشدان، ط الاسيسكو، ١٤١٥ هـ –١٩٩٤ م.

معجم البلدان:

ياقوت الحموي، تحقيق الأمين الشنقيطي، مطبعة السعادة، الأولى ١٣٢٣هـ–١٩٠٦م.

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة:

عمر رضا كحالة، الرسالة، السادسة ١٤١٢هـ ١٩٩١م

المغازى:

الواقدى، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمى، ب.ت.

مناهل العرفان في علوم القرآن:

محمد الزرقانى، مطبعة الحنبى، ب.ت.

نسب قريش:

الزبيرى، تحقيق ليفى بروفنسال، المعارف، الثالثة ب. ت.

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:

القلقشندي، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتب الإسلامية، الثالثة ١٤٠٠هـ– ١٩٨٠ م.

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين:

محمدالخضرى، تحقيق احمد عبداللطيف، دار النشر والتوزيع الإسلامية، الاولى ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.

الخاتمة

آن لنا أن نضع رحالنا بعد هذه الرحلة الممتدة مع رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس أبي عبيدة بن الجراح ﷺ. وهي رحلة جديرة بالاستكشاف، وحقيقة بالاستقراء..

فمع بزوغ شمس الإسلام كان أبوعبيدة ﷺ من السابقين الأولين إلى الدخول فى حظيرته، ومؤازرة نبيه ﷺ فشهد المشاهد كلها، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان له دوره العظيم فى معركتي بدرٍ وأُحد اللتين كانت له فيهما مواقف جليلة سجلها التاريخ بكل فخرٍ واعتزازٍ.

وبعد وفاة النبي ﷺ بدأت مرحلة جديدة من حياة هذا الفارس، فقد اختلف المسلمون حول من يخلف النبي ﷺ فرأى المهاجرون أنهم الأحق بالخلافة، فهم الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق، وأُوذوا فى سبيل الله، ورأى الأنصار أنهم الأولى بها دون غيرهم، فعلى أرضهم قامت أركان الدولة الإسلامية.. وفى هذه اللحظات العصيبة الحاسمة من حياة الإسلام يبرز دور أبي عبيدة ﷺ ليعيد الأمور إلى نصابها ويُخمد نار الفتنة بما أُوتي من حكمةٍ وحزمٍ لازَمَاه طيلةَ حياته.

ولم يتوقف عطاءُ أبي عبيدة ﷺ عند هذه المرحلة فحسب؛ وإنما واصل جهاده جندياً فى جيش الإسلام الذي فتح الله تعالى به بلاد الشام وبيت المقدس.

لقد عاش ابن الجراح ﷺ حياةً زاهدةً، ففضَّل أن يكون مقاتلاً في مَصَافِّ هذا الدين على أن يكون خليفةً للمسلمين .. ولا غَرْوَ فى ذلك، فالرجل قائدٌ عسكريٌ لا يُشق له غُبَارٌ .. ولا يمكن لمن حَمَلَ لامَتَه أن يضعها بهذه السهولة.

وهكذا عشنا فى هذا الكتاب مع شخصية متفرِّدةٍ بحميدِ الخصالِ وجميلِ الفعالِ.. فما أحْوَجَنا إلى أبي عبيدةَ جديدٍ يفتحُ اللهُ على يديه بيتَ المقدسِ الأسيرَ الذي يئنُ أنينَ العَلِيلِ تحتَ وطأةِ الاحتلالِ الصهيوني بمباركةِ القوى الاستعمارية الكبرى، وعلى مرأى ومسمعٍ من العرب والمسلمين الذين لا يتحركُ لهم ساكنٌ ..

فَسَلامٌ على أبي عُبَيدةَ في الأوَّلِينَ..

ونسألُ اللهَ تَعَالَىَ أن يَجمَعَنَا بِهِ فى عِلِيِّيِّن..

وصَلَى اللهُ وسَلَمَ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمَعِينَ

الفهرس

تم بحمد الله

المؤلف في سطور

د/ وليد عبد الماجد كساب

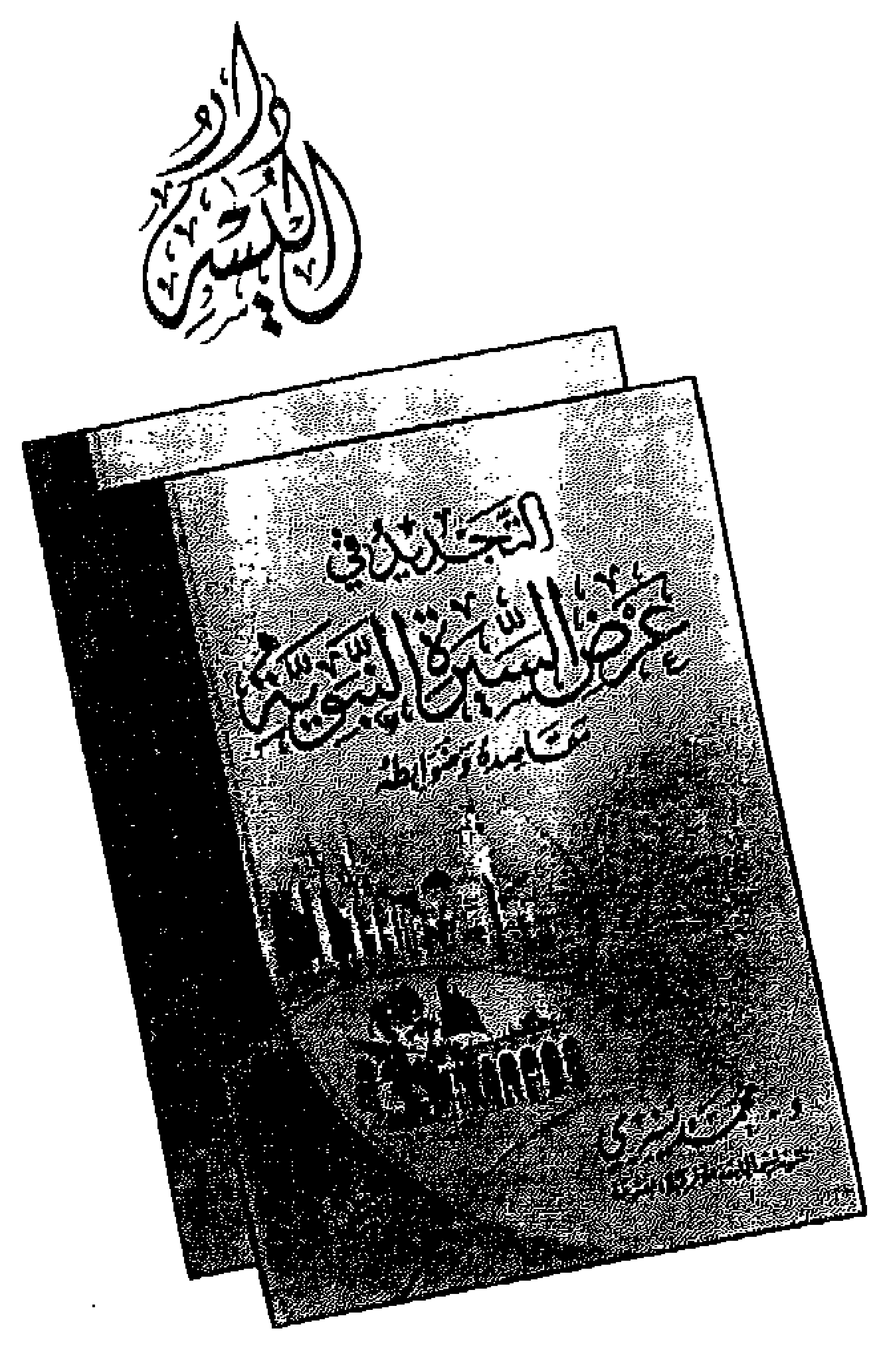
* مدير إدارة التنسيق والمتابعة برابطة الجامعات الإسلامية.
* سكرتير تحرير مجلة "الجامعة الإسلامية" (علمية - محكمة).
* عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
* له عدة مقالات وأبحاث منشورة في صحيفة "الأهرام" المصرية، مجلة "الدعوة" السعودية، مجلة "الأدب الإسلامي" السعودية، وغيرها من الصحف والمجلات.
* شارك في تنظيم الكثير من المؤتمرات والمنتديات العلمية في مصر وخارجها.
* قام بإعداد مجموعة كبيرة من البرامج للفضائيات الإسلامية مثل : الفجر، الهدى، أعمال الاقتصادية، صفا، أزهري.
* نُشرت له عدة دراسات منها: الإسلام في مواجهة الإرهاب (مُؤلَّف مشترك)، التسامح في الفكر الإسلامي (مُؤلَّف مشترك)، الفكر السياسي عند حجة الإسلام الغزالي، قضية الفقر وكيف تناولها أدب الرافعي (دراسة).
* حصل على عدة جوائز أهمها: الميداليتان الفضية والذهبية لعامي ٢٠٠٠، ٢٠٠١م، جائزة مؤسسة اقرأ لعام ٢٠٠١م، الميدالية الذهبية في المسابقة الدينية للقادة بوزارة الشباب لعام ٢٠٠٠م، جائزة المسابقة الإسلامية العامة (العُمْرَة) من وزارة الشباب لعام ١٩٩٩م.
* يعد الآن أطروحته لنيل الماجستير تحت عنوان "الدلالات السياقية لخلاف مقتضى الظاهر في تفسير الطاهر ابن عاشور".

التجديد

في عرض السيرة النبوية
مقاصده وضوابطه

تأليف: د. محمد يسري

من تأمل في جماع الخيرات ومعدن البركات، لم ير إلا سنة وسيرة خير البريات، فهما تبيان القرآن، ودستور أهل الإيمان، وقدوة أبناء كل زمان ومكان، وسيرته ﷺ على مثلها يؤمن البشر، وتجديد عرض السيرة له مقاصد شريفة، ومعالم منيفة، تؤكد على أصول العقيدة والمفاهيم الصحيحة، وتلاحظ الوحدة الجامعة بين أمة الإيمان على مر العصور وكر الدهور، وتبرهن على وحدة حضارة أهل الإيمان في أطرها العامة وسياجها الكلي، وهذه مشاركة في تجديد عرضها، ومدّ رواقها، وتسهيل درسها، وتقريب عبرها، وضبط مقاصد تدوينها ونشرها.





هذا الكتاب

يطوّف بنا مؤلفُ هذا الكتاب حول شخصيةٍ فذةٍ فريدةٍ من أصحاب النبي ﷺ، وعبقرية قلّما يجودُ الزمانُ بمثلِها.. جمعَ صاحبُها بين العلمِ والفهْم.. والحِلْم والحزْمِ.. والزُّهدِ والكَرَمِ.. والإقدام والتأنِّي.. والولاءِ والبراءِ..والخوفِ والرجاءِ.. والشدةِ واللينِ.. والعزةِ والتواضع...

إنه الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه الذي أسلم مبكرًا، وجاهد مع النبي ﷺ وشهد معه المشاهد كلها، وواصل جهاده قائدًا من قادة المسلمين المُبرزين في فتوحات الشام، فكان على رأس الفاتحين لبيت المقدس الشريف..

فما أحوج المسلمين الآن إلى هذا الطِراز الفريد من الرجال الذين آمنوا بالإسلام عقيدةً ومنهاجًا؟!



